


رينيه ديكارت

منهجه المعرفي وموقفه من الدين والقَدَر

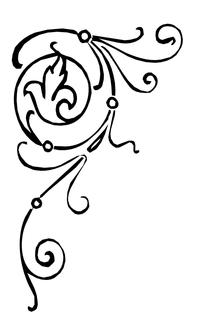
عرض ونقد في ضوء الإسلام والسنة والعقل

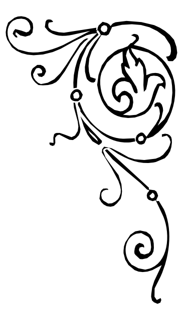
تأليف

د. عبد القادر بن محمد الغامدي

أستاذ العقيدة المشارك بجامعة الباحة



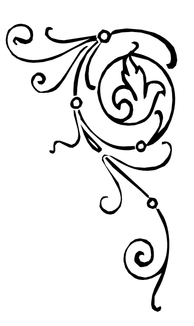





رينيه ديكارت

منهجه المعرفي وموقفه من الدين والقَدَر

عرض ونقد في ضوء الإسلام والسنة والعقل


الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

دار النبلاء للطباعة والنشر والتوزيع

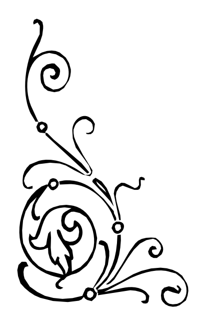
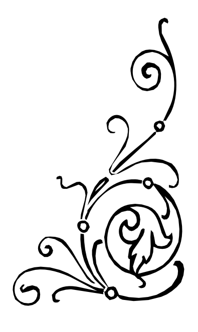
القاهرة ٠١٠٢٩٢٨٩٢٨٣

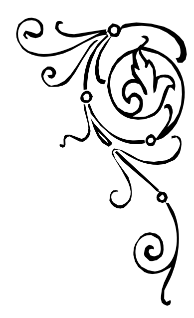
مكتبة زاد الراوي

المدينة المنورة - أمام البوابة الجنوبية للجامعة الإسلامية

جوال: ٠٥٤٢٦٥٨٢٠٨

al.rawi.zd@gmail.com

رينيه ديكارت

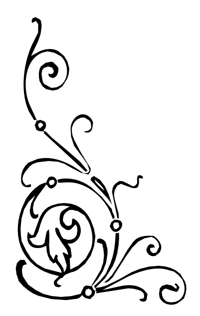
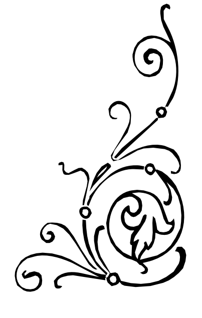
منهجه المعرفي وموقفه من الدين والقَدَر

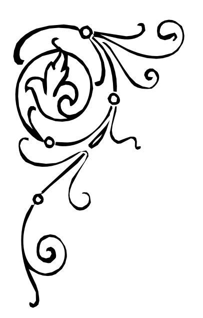
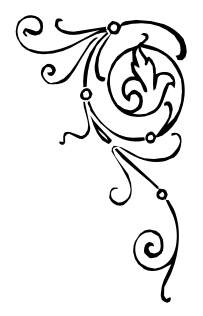
عرض ونقد في ضوء الإسلام والسنة والعقل

تأليف

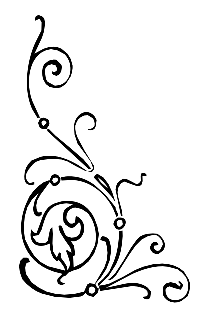
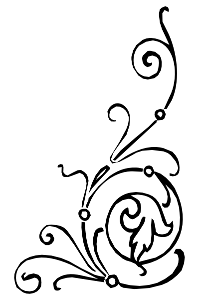
د. عبد القادر بن محمد الغامدي

أستاذ العقيدة المشارك بجامعة الباحة

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله في الأولىٰ والآخرة، والصلاة والسلام علىٰ من بعثه الله بخيري الدنيا والآخرة، وأرسله رحمة للعالمين، وعلىٰ أصحابه ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين. أما بعد:

فإن دراسة مناهج كبار الفلاسفة الأوروبيين، وأصولها ونقدها في ضوء الإسلام والسنة المحمدية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والتسليم، وفي ضوء العقل السليم، في الغاية من الأهمية؛ **أولًا**: لأن من لم يعرف الجاهلية لم يعرف الإسلام. **وثانيًا**: ليزداد المسلم يقينًا وفرحًا وتمسكًا بعقيدته ودينه؛ وحمدًا لله تعالىٰ عليها. **وثالثًا**: لأن بعض المناهج الغربية قد تأثر بها شريحة كبيرة من المسلمين، خاصةً منهج «أبو الفلسفة الحديثة»: رينيه ديكارت وكونه أبًا للفلسفة الحديثة يعني تأثيره الكبير علىٰ من جاء بعده من الفلاسفة الغربيين. وقد أثَّر ديكارت كثيرًا في أوروبا، حتىٰ جُعل مجددًا للفلسفة، وتأثر به ودعا لمنهجه كثير من المفكرين والأدباء العرب المنبهرين بالغرب، كطه حسين مثلًا؛ ومعلوم أيضًا أن بيان أصول الانحرافات التي دخلت علىٰ المسلمين له دور كبير في قبولها أو ردها؛ فنريد أن نعرف منهجه، وكيف أثر في أوروبا، ومن أين أخذ منهجه، وأثر المسلمين عليه، وعرض كل ذلك علىٰ النقل الصحيح والعقل السليم.

الدراسات السابقة:

كتب في أوروبا وفي الشرق كتب ومقالات كثيرة لا تحصىٰ حول ديكارت، لكن يرىٰ د. عبدالرحمن بدوي أن أوفي ترجمة له في أوروبا هي

ترجمة (Baillet) له، وفي الشرق هناك كتابات كثيرة حوله ومنها كتابات الدكتور عثمان أمين، وله كتابه المشهور بعنوان (ديكارت). وكتب عنه الشيخ مصطفىٰ صبري في كتابه (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين) خاصة في المجلد الثاني.

ومن الدراسات المفردة العربية:

١- كتاب (فلسفة ديكارت ومنهجه) للدكتور مهدي فضل الله.

٢- كتاب (الله أساس المعرفة والأخلاق عند ديكارت) لنظمي لوقا.

٣- كتاب (المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت) للدكتور محمود حمدي زقزوق.

٤- كتاب (ديكارت) لنجيب بلدي.

وبعضها في جانب معين من الجوانب حول ديكارت، وبعضها أعم من مجرد ذكر منهجه، وكل مؤلف يصطحب فهمه الخاص من كلام ديكارت في جوانب كثيرة، قد يخالَف فيها، لكن لم أجد دراسة مفردة تتناول منهجه علىٰ المنهاج المتين منهاج أهل السنة والجماعة، وهذا الجديد في هذا الكتاب، لحاجة الناس الملحة إلىٰ هذه الدراسات اليوم خاصة.

خطة الكتاب: جعلته في هذه المقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب[١]:

التمهيد، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: ترجمة ديكارت ومؤلفاته.

المبحث الثاني: مكانة ديكارت في أوروبا، وأثره فيها.

---

(١) أصل هذا الكتاب ثلاثة بحوث، الباب الأول محكَّم في مجلة جامعة الطائف ومجاز للنشر، والباب الثاني مُحكَّم في مجلة جامعة أم القرىٰ، ومنشور فيها، والباب الثالث محكم في مجلة الجامعة الإسلامية ومنشور فيها، بحمد الله تعالىٰ.

الباب الأول: منهج رينيه ديكارت المعرفي وتحته فصلين؛

الفصل الأول: المنهج الشكي عند ديكارت، وفيه تمهيد، وخمسة مباحث:

تمهيد: ماذا يريد ديكارت من منهجه الشكي.

المبحث الأول: الشك عند ديكارت سببه وطريقته في الخروج منه.

المبحث الثاني: الشك المنهجي والحقيقي.

المبحث الثالث: موقف ديكارت من المحسوس.

المبحث الرابع: الكوجيتو الديكارتي.

المبحث الخامس: خطوات منهج ديكارت.

الفصل الثاني: وفيه مبحثان:

المبحث الأول: موقف ديكارت من الفلسفة القديمة والمنطق الأرسطي.

المبحث الثاني: بين الغزالي وديكارت.

خاتمة الباب.

الباب الثاني: موقفه من الدين؛ وفيه تمهيد، وثلاثة فصول:

الفصل الأول: الموقف من الله ووجوده في فلسفة ديكارت.

الفصل الثاني: تعظيم ديكارت للدِّين، وانعكاس ذلك في أوروبا بسبب تحريفات الكنيسة.

الفصل الثالث: أدلة وجود الله عند ديكارت.

خاتمة الباب.

الباب الثالث: مفهوم القضاء والقدر عند ديكارت، وفيه تمهيد، وفصلين:

التمهيد: وفيه مقدمات حول القضاء والقدر.

الفصل الأول: مباحث حول الإرادة، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: إرادة الإضلال عند ديكارت.

المبحث الثاني: إرادة الخالق وإرادة المخلوق عند ديكارت.

المبحث الثالث: الجمع بين الإيمان بالقدر وحرية إرادة العبد عند ديكارت.

الفصل الثاني: مباحث حول الشر والخطيئة عند ديكارت، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: سبب وقوع الخطأ والشر عند ديكارت.

المبحث الثاني: هل الله يريد الشر، وهل الشر يرجع إلىٰ الله؟ عند ديكارت.

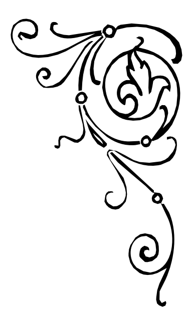
المبحث الثالث: كيف نتلافىٰ الخطأ والشرَّ عند ديكارت؟

المبحث الرابع: رد الاعتراض علىٰ وجود النقص والشر في المخلوق.

ثم خاتمة الباب. التوصيات.

ثم الفهارس.

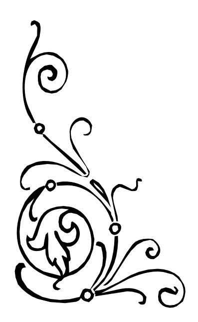
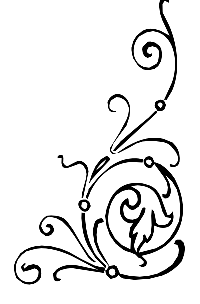
فأبدأ مستعينًا بالله تعالىٰ وحده، مستمدًّا منه اللطف والتسديد والقبول:

التمهيد، وفيه مبحثان

المبحث الأول: ترجمة ديكارت، ومؤلفاته.

المبحث الثاني: مكانة ديكارت في أوروبا، وأثره فيها.



المبحث الأول

ترجمة ديكارت، ومؤلفاته

رينيه ديكارت فيلسوف فرنسي كبير، ولد في (٢ شعبان ١٠٠٤هـ) الموافق (٣١ مارس ١٥٩٦م) في لاهي وهي بلدة صغيرة غرب فرنسا، وتوفي في (٩محرم ١٠٦٠هـ) الموافق (١١ فبراير ١٦٥٠م)، وتلقىٰ تعليمه في كلية «لافليش» اليسوعية، وقد ظلَّ يحتفظ لأساتذته فيها بإعجاب شديد، لكنه لم يرضَ عمَّا فيها من مقرَّرات دراسية حينما تبين أنها في معظمها لا تخرج عن كونها تلقينا لآراء القدماء ولا تورث معرفة يقينية، وأن الرياضة هي العلم الوحيد الذي يقدم معرفة يقينية[(١)].

ويعدُّ ديكارت رائد الفلسفة في العصر الحديث، وفي الوقت نفسه كان رياضيًا ممتازًا، وهو مبتكر الهندسة التحليلية. وكثير من الأطروحات الفلسفية الغربية التي جاءت بعده، هي انعكاسات لأطروحاته، والتي ما زالت تُدْرس حتىٰ اليوم؛ فكان بذلك من الشخصيات الرئيسية في تاريخ الثورة العلمية. وهو الشخصية الرئيسية لمذهب العقلانية في القرن ١٧م[(٢)].

(١) انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة ص١٨٩.

(٢) انظر: تاريخ الفلسفة الغربية لبرتراندرسل الكتاب الثالث ص١٠٤ وما بعدها، موسوعة الفلسفة لبدوي (١/٤٨٨)، الموسوعة الفلسفية المختصرة ص١٨٩، تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص٦٤.

يُلقَّب ديكارت في أوروبا بـ «أبو الفلسفة الحديثة»، وأول من وصفه بهذا الوصف، فلاسفة الألمان وعلىٰ رأسهم «هيجل»[(١)]، و«شلنج»[(٢)]. قال «هيجل»: (إن رينيه ديكارت هو في الواقع المحرك الأول الحقيقي للفلسفة الحديثة)[(٣)]، ويقول «برتراندرسل»[(٤)]: (يعتبر رينيه ديكارت عادة مؤسس الفلسفة الحديثة، وبحق كما أظن)[(٥)].

عرض ديكارت أسس فلسفته الجديدة سنة ١٦٢٨م علىٰ أنَّها تؤلِّف فلسفة نصرانية منافية لفلسفة «أرسطو»[(٦)] والقديس «توما

---

(١) جورج فلهلم فريدريك هيجل (١٧٧٠-١٨٣١) فيلسوف ألماني ولد في شتوتغارت في المنطقة الجنوبية الغربية من ألمانيا. يعتبر هيغل أحد أهم الفلاسفة الألمان، حيث يعتبر أهم مؤسسي المثالية الألمانية في الفلسفة في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٥١٢.

(٢) شلنج فيلسوف ألماني، وهو فريدريك شيلنغ ولد عام ١٧٧٥ وتوفي في عام ١٨٥٤ ويعد أحد الكبار الذين صاغوا النظرة الديالكتيكية لتطوير المجتمع. وفي عام ١٧٩٨ أصبح استاذا للفلسفة في جامعة ايينا. جعل فلسفة الطبيعة هي أحد اهتماماته لينتقل بعد ذلك لفلسفة الروح. انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة ص٢٩٤.

(٣) بواسطة: المذاهب الفلسفية العظمىٰ في العصور الحديثة، د.محمد غلاب، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٨م، ص٦٨-٦٩.

(٤) برتراند أرثر ويليام راسل (١٨٧٢-١٩٧٠)، فيلسوف وعالم منطق ورياضي ومؤرخ وناقد اجتماعي بريطاني. انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٢١٠، موسوعة الفلسفة (٥١٧/١).

(٥) تاريخ الفلسفة الغربية الكتاب الثالث: الفلسفة الحديثة ص١٠٤.

(٦) ارسطوطاليس (٣٨٤ ق.م.-٣٢٢ ق.م.) فيلسوف يوناني كان أحد تلاميذ أفلاطون، ومعلم الإسكندر الأكبر، كتب في مواضيع متعددة تشمل الفيزياء، والشعر، والمنطق، وعبادة الحيوان، والأحياء، وأشكال الحكم. وهو مؤسس علم المنطق، قال شيخ الإسلام: (وأما أرسطو وأصحابه فكانوا مشركين يعبدون الأصنام والكواكب، وهكذا كان دين اليونان والروم قبل ظهور دين المسيح فيهم، وكان ارسطو قبل المسيح بنحو =

الأكويني»[١] فأعجب به الكاردينال، وكان أوغسطينيًا[٢]، وشجعه تشجيعًا حارًّا علىٰ مواصلة بحثه، وإتمام فلسفته خدمة للدين، وصداً لخدمات الزنادقة، يقول «يوسف كرم»: (وهذه واقعة لها خطرها، ندرك منها أن العلم الطبيعي الرياضي أو الآلي صرفه عن «أرسطو» إلىٰ «أفلاطون»[٣]، وأنه تأثر -ولو بالواسطة- بالأفلوطينيين المسيحيين[٤]، فلن نعجب إذا وجدنا عنده شيئًا من القديس «أوغسطين»[٥]، وشيئًا من القديس «انسلم»[٦]

= ثلثمائة سنة، وكان وزير الاسكندر بن فيلبس المقدوني الذي تؤرخ له اليهود والنصارىٰ التأريخ الرومي، وكان قد ذهب إلىٰ أرض الفرس واستولىٰ عليها) الرد علىٰ المنطقيين ص٢٨٣. انظر: موسوعة الفلاسفة (١/٩٨)، الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٣٨.

(١) توما الأكويني نسبة إلىٰ بلدة آكوين (١٢٢٥-١٢٧٤) أكبر فلاسفة العصور الوسطىٰ النصرانية، ولا يزال تأثيره عظيما في الكنيسة الكاثوليكية وفي الفكر النصراني بعامة. انظر: موسوعة الفلاسفة (١/٤٢٦).

(٢) نسبة إلىٰ القديس الرهباني أوغسطين وستأتي ترجته قريبا.

(٣) أفلاطون أحد أكبر وأشهر فلاسفة اليونان والعالم، وهو أستاذ أرسطو، وتلميذ سقراط، ولد سنة ٤٢٨ قبل الميلاد في أثينا اليونانية. انظر: موسوعة الفلاسفة (١/١٥٤)، الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٥٢..

(٤) فلسفة متأثرة بأفلوطين (حول ٢٠٥-٢٧٠م) وهو فيلسوف يوناني، يُعتبر أبرز ممثلي الأفلاطونية المُحْدَثَة. كان لكتاباته في الميتافيزقيا تأثير كبير علىٰ العديد من الفلسفات والأديان: الوثنية، اليهودية، المسيحية، الإسلام، الصوفية. انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٦٦.

(٥) أوغسطين (٣٥٤-٤٤٠) القديس، لاهوتي وفيلسوف نصراني، ولد في نوميديا علىٰ الحدود التونسية، ترك التصرانية لسذاجة كتبها المقدسة أسلوبا ومضمونا، ثم رجع إليها وعين سنة ٣٩١ كاهنا ثم اسقفا، ثم صار الزعيم الفكري للكاثوليكية الافريقية. انظر: موسوعة الفلاسفة (١/٢٤٧)، الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٨٨.

(٦) انسلم من كانتربري (١٠٣٣-١١٠٩) أعلن قديسا عام ١٤٩٤، ولد في إيطاليا، وصار رئيس أساقفة كانتربري، كان أول مفكر نسقي التفكير في العصور الوسطىٰ، كانت مؤلفاته تقدم تأملا في وجود الله مستندا إلىٰ العقل ويستغني فيه عن الكتاب المقدس. انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٨١.

وشيئًا من «سكوت»[(١)] وشيئا من «أوكام»[(٢)] وغيره من الإسميين[(٣)])[(٤)].

وفي الموسوعة الفلسفية المختصرة[(٥)]: (ليس هناك أدنىٰ شك في أنه كان مُخلصًا لعقيدته الكاثوليكية، فقد كان يعتقد أن فلسفته علىٰ وفاق مع الإيمان، وأنها هي الطريق الوحيدة للتوفيق بين الإيمان وما أُحرِز في عصره من نتائج التقدم في المعرفة الطبيعية).

مؤلفات ديكارت:

١- «كتاب العالم»: وفيه يبحث في الطبيعة علىٰ أساس النتائج التي توصل إليها كوبرنيكوس وجاليليو في النظام الشمسي ودوران الأرض حول الشمس. ذكر ديكارت أنه أنفق بعض السنين في الدرْس في هذا الكتاب[(٦)]. ويقول عنه: (ولما كنت قد اجتهدت في شرح أصول تلك الحقائق في رسالة منعتني بعض الاعتبارات من إذاعتها)[(٧)]، يقول محمود

(١) سكوت، جون دونس (حوالي ١٢٦٦-١٣٠٨) ولد في اسكتلندا، ودخل الرهبنة الفرنسيسكانية، وتعلم وعلم في جامعتي أكسفورد وباريس. انظر: موسوعة الفلاسفة (١/١٤٦)، الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٢٦٢.
(٢) أوكام فيلسوف ولاهوتي إنجيلي، (١٣٠٠-١٣٥٠) ولد في إنجلترا، من كبار دعاة النزعة الإسمية. انظر: موسوعة الفلسفة (١/٢٥٢).
(٣) الاسمية: هي النظرية التي تذهب إلىٰ أن موضوعات التفكير مجرد ألفاظ، وأن اللفظ الكلي ليس له معنىٰ أكثر من مجموعة الأشياء التي ينطبق عليها. انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٥٢.
(٤) تاريخ الفلسفة الحديثة ص٦٦.
(٥) ص١٨٩.
(٦) مقال عن المنهج ص١٢٠.
(٧) مقال عن المنهج، ص١٦٨.

الخضيري محقِّق كتاب «مقال عن المنهج»: (يقصد كتابه العالم .. وكان قد بدأ الكتابة فيه في أواخر عام ١٦٢٩)[١]. والذي منعه من إذاعته خوفه من بطش الكنيسة. يقول ديكارت: (مضت الآن ثلاثة أعوام منذ انتهيت من الرسالة التي تحتوي علىٰ كل هذه الأشياء، وأخذت مراجعتها كي أضعها بين يدي طابع، عندما علمت أن أشخاصًا أجلَّه، ولهم السلطة علىٰ أعمالي ما لا يقل عمَّا لعقلي من السلطة علىٰ أفكاري، لم يقروا رأيًا في علم الطبيعة أذاعه البعض[٢] قبل الآن بقليل. ولا أريد أن أقول إني كنت علىٰ هذا الرأي، لكني أريد أن أقول: إنني لم ألاحظ فيه قبل استنكارهم، ما أستطيع أن أتوهمه مضرًّا بالدين أو بالدولة)[٣]. وهذا يعني أن ديكارت يريد التمييز بين ما يراه حقًّا في الكنيسة وما يراه باطلا، وأنه استخدم عقله في التخلص من بعض خرافات الكنيسة. ولكن ذكر سبب عدم نشر كتابه هذا، وهو علمه بما أصاب «جاليليو»، ورغبته في عدم إثارة رجال الدين عليه، الذين كانوا يعارضون بشدة وببطش كل ما يعارض طبيعيات «أرسطو» الكاذبة. وقد نشره فيما بعد وطبع[٤].

٢- «مقال عن المنهج» وأسماه هو: «مقال في المنهج لحسن توجيه العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم»[٥]، وهو أول كتبه، وقد ذكر في

(١) حاشية مقال عن المنهج، ص١٦٨.
(٢) يقول المحقق معلقا هنا: (يقصد بالبعض غاليليه، وبالأشخاص الذين يجلهم رجال الدين الذين كانوا يختصون بمراقبة الحركة الفكرية، ولقد أذاع غاليليه في سنة ١٦٣٢ كتابه الذي يقول فيه بدورة الأرض، فدانته محكمة التفتيش برومة، ولقد أتم ديكارت كتابه العالم سنة ١٦٣٣) حاشية: مقال عن المنهج، ص١٨٩.
(٣) مقال عن المنهج، ص١٨٩.
(٤) بترجمة أميل خولي بعنوان (العالم أو كتاب النور)، دار المنتخب العربي، الطبعة الأولىٰ ١٤١٩هـ-١٩٩٩م .
(٥) انظر: مبادئ الفلسفة ص٤٣-٤٥.

كتابه «التأملات» ما يبين ذلك، يقول في «التأملات»(١): (وقد تقدمت في ذلك «المقال في المنهج» بالرجاء إلىٰ جميع من قد يجدون فيما كتبت ما يستحق النقد أن يتفضلوا بتنبيهي إليه).

٣- «تأملات في الفلسفة الأولىٰ» يقول «ديكارت» في سبب تأليفه: (وقد تنبأت بما قد يجده كثيرون من صعوبة في تصور أسس الميتافيزيقا، حاولت أن أشرح أهم مباحثها في كتاب «تأملات»(٢) ليس في الأصل كبيرًا، ولكن زاد حجمه واتضحت مادته كثيرًا بما أضيف إليه من اعتراضات؛ أرسلها إلي بصدده أشخاص كثيرون من المتجرين جدًّا في العالم، ومن ردود قيَّدتها علىٰ تلك الاعتراضات)(٣). وكان رد فيه علىٰ الهجمات والاعتراضات التي وردت عليه من اللاهوتيين واليسوعيين.

٤- «مبادئ الفلسفة» وهذا كتابه الرئيسي في الفلسفة؛ أهداه للأميرة «إليزابث» كبرىٰ بنات «فردريك» ملك بوهيما. وكتب الإهداء لها في مقدمته.

ويقول «ديكارت»: (وأخيرًا لمَّا بدا لي أن تلك الرسائل السابقة قد مهَّدت أذهان القراء لتلقي مبادئ الفلسفة؛ رأيتُ أيضًا أن أنشر هذه «المبادئ»)(٤)، وكان بين تأليف «مقال عن المنهج» وهذا الكتاب قريب من اثني عشر سنة.

---

(١) ص٤٧.
(٢) وعنوانه كما هو علىٰ غلافه (التأملات في الفلسفة الأولىٰ) ترجمه إلىٰ العربية وقدم له وعلق عليه: عثمان أمين.
(٣) مبادئ الفلسفة ص٤٣-٤٥.
(٤) مبادئ الفلسفة ص٤٣-٤٥.

٥- «انفعالات النفس»[1]، طلبت منه كتابته الأميرة «أليزابت»، وهو آخر كتاب أصدره في حياته؛ يتكلم فيه عن انفعالات النفس من غضب وحزن ورضا وفرح ونحوها. وبيَّن فيه مذهبه في الأخلاق.



(١) طبع بترجمة وتقديم وتعليق: جورج زيناتي. دار المنتخب العربي.



المبحث الثاني

مكانة ديكارت في أوروبا، وأثره فيها

ديكارت يعتبر في أوروبا مجدِّدًا للفلسفة، ومن أكبر أسباب النهضة، وركنها من أركانها مع فرانسيس بيكون[(١)]، فنتائج منهجه علىٰ أوروبا نتائج كبيرة، بل اعتبرت فلسفته أكبر ثورة فلسفية عرفها التاريخ منذ سقراط حتىٰ كانط[(٢)]، لذلك يلقبونه «أبو الفلسفة الحديثة» ورائدها الأول كما سبق. قال «هيجل»: (إن رينيه ديكارت هو في الواقع المحرك الأول الحقيقي للفلسفة الحديثة، من حيث اتخاذها الفكر مبدأً أساسيًا، وإن أثر هذا الرجل في عصره، وفي العصور الحديثة، مهما قيل في شأنه لا يمكن أن يكون مغالًا فيه، إنه بطل، وقد تناول الأشياء من مبادئها)[(٣)].

---

(١) فرانسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦) فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، ولد بلندن، معروف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة علىٰ «الملاحظة والتجريب». من الرواد الذين انتبهوا إلىٰ غياب جدوىٰ المنطق الأرسطي الذي يعتمد علىٰ القياس. انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة ص١٤٥، تاريخ الفلسفة الحديثة ص٤٨.

(٢) انظر: الفلسفة الحديثة عرض ونقد ص١٥٢. وكانط: هو وإيمانويل كانت أو إيمانويل كانط هو فيلسوف ألماني من القرن الثامن عشر (١٧٢٤-١٨٠٤). عاش كل حياته في مدينة كونيغسبرغ في مملكة بروسيا. كان آخر الفلاسفة المؤثرين في الثقافة الأوروبية الحديثة. وأحد أهم الفلاسفة الذين كتبوا في نظرية المعرفة الكلاسيكية. انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٣٢٩.

(٣) بواسطة: المذاهب الفلسفية العظمىٰ في العصور الحديثة، د.محمد غلاب، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٨م، ص٦٨-٦٩.

ويقول «برتراندرسل»[(١)]: (يعتبر رينيه ديكارت عادة مؤسس الفلسفة الحديثة، وبحق كما أظن .. ولئن صح أنه يحتفظ بالكثير من النزعة المدرسية، فهو مع ذلك لم يتقبل الأسس التي أرساها أسلافه، وإنما حاول أن يشيد صرحًا فلسفيًا من جديد، ولم يحدث هذا منذ أرسطو)[(٢)].

وتقول الكاتبة «جنفياف روديس لويس»[(٣)] واصفة أثر ديكارت علىٰ الغربيين: (وأخيرًا ها قد أتىٰ ديكارت. إن رائد «الأفكار الواضحة» يمثل في نظر الكثيرين ولادة الفكر الحديث، مرتقيًا إلىٰ وعي قدراته الذاتية عن طريق نقد الآراء المتوارثة نقدًا مركزيًّا .. ولقد احتُفل بالذكرىٰ المئوية الثالثة لظهور «المقالة في المنهج» عام ١٩٣٧، في العالم بأسره، احتفالا استثنائيًا، لم يجرِ مثله لمقالة فلسفية أخرىٰ)[(٤)].

ويقول الشيخ مصطفىٰ صبري[(٥)]: (جاء ديكارت فأعاد إلىٰ العقل كرامته، وفتح عهدًا جديدًا في الفلسفة وقضىٰ علىٰ الحسبانية[(٦)])[(٧)].

---

(١) برتراند أرثر ويليام راسل (١٨٧٢-١٩٧٠)، فيلسوف وعالم منطق ورياضي ومؤرخ وناقد اجتماعي بريطاني. ويكيبيديا.

(٢) تاريخ الفلسفة الغربية الكتاب الثالث: الفلسفة الحديثة ص١٠٤.

(٣) فرنسية من مواليد ١٩١٨، مارست تعليم الفلسفة في كليات مختلفة، وهي الآن تدرس تاريخ الفلسفة في جامعة ليون، وتهتم خاصة بالقرن السابع عشر، وبالفلسفة اليونانية، ألقت محاضرات في بيروت حين زيارتها لها. انظر: غلاف كتابها ديكارت والعقلانية.

(٤) ديكارت والعقلانية ص٩.

(٥) هو شيخ الإسلام في الدولة العثمانية في زمنه، وهو أعلىٰ المناصب العلمية فيها، جاهد جهادا كبيرا في مقاومة العلمانية والإلحاد، وتحرير المرأة بالمنعىٰ الغربي، وتعرض لابتلاءات كثيرة، (١٢٨٦-١٣٧٣هـ) انظر كتاب (الشيخ مصطفىٰ صبري وموقفه من الفكر الوافد) ص٦٣-١٣٠.

(٦) الحسبانية عدوَّة اليقين، وهي القائلة بتعذر الحصول بالعقل علىٰ اليقين. انظر: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين (٢/ ٢٥١).

(٧) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين (٢/ ٢٥١).

وكان لفلسفة ديكارت أعمق الآثار في مختلف أنحاء العالم: ذاعت في فرنسا، وانجلتر، وألمانيا، وهولندا، وايطاليا، وفي غيرها من البلاد الأوربية إبان القرن الثامن عشر[(١)].

وقد أثرت فلسفته في أكبر فلاسفة أوروبا الذين جاؤوا بعده، يقول الدكتور أحمد السيد رمضان: (إن المذاهب الكبرىٰ في الفلسفة الحديثة تنتمي إلىٰ ديكارت؛ ويؤيد هذا «كونوفيشر»[(٢)] الذي يرىٰ أن الفلسفة الديكارتية، والمسالك المتعارضة التي سلكتها هي الأصل والشرط اللازم لمذاهب حديثة شتىٰ: كمذهب المناسبات[(٣)] لـ «مالبرانش»[(٤)]، والواحدية[(٥)]

---

(١) انظر: مقدمة «مقال عن المنهج» ص٢٧، تاريخ الفلسفة الحديثة ص٩٧. وعلىٰ الرابط: http://talatine.e-monsite.com/pages/--2.html.

(٢) فيلسوف ألماني، ولد في ٢٣ يوليو ١٨٢٤ في بولندا، وتوفي في ٥ يوليو ١٩٠٧ في هايدلبرغ في ألمانيا. وهو عضو في أكاديمية العلوم المفيدة، والجمعية الهيلينية الفلسفية في القسطنطينية، وأكاديمية لينسيان، والأكاديمية البروسية للعلوم. انظر: (ويكيبيديا).

(٣) مذهب لمالبرانش يرىٰ فيه أن الله وحده هو الفعال: ينمي النبات بمناسبة حرارة الشمس، ويفعل كل شيء بمناسبة شيء آخر، وليست المخلوقات عللًا، ولكنها هي وأفعالها «فرص» أو «مناسبات» لوجود موجودات وأفعال أخرىٰ بفعل الخالقز انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة ص١١١.

(٤) نيكولا مالبرانش هو فيلسوف فرنسي (١٦٣٨-١٧١٥)، وهو يعد أحد الفلاسفة العقلانيين في القرن السابع عشر. سعىٰ مالبرانش في أعماله إلىٰ تخليق أفكار أوغسطينوس وديكارت. انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٤٤٩، تاريخ الفلسفة الحديثة ص١٠٨.

(٥) هي النظرية التي تقول بوجود جوهر واحد فحسب، أو عالم واحد، أو أن الواقع الخارجي واحد، أي أنه لا يتغير ولا ينقسم ولا يتمايز. انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٥٣٤.

عند «اسبينوزا»[١]، والجواهر الفردة[٢] عند «ليبنتز»[٣]، والحسيات[٤] عند «لوك»[٥]، والمثالية[٦] عند «بروكلي»[٧]، والنقد عند «كانط»، وبهذا تكون فلسفة ديكارت هي روح الفلسفة والعلم في الحصر الحاضر، كما قال «هكسلي»[٨]، ومن أجل ذلك اعتبر ديكارت زعيمًا للفكر الفلسفي الحديث، بل وأبا للفلسفة الحديثة)[٩].

---

(١) باروخ سبينوزا هو فيلسوف هولندي يهودي من أهم فلاسفة القرن ١٧. (١٦٣٢ في أمستردام-١٦٧٧ في لاهاي) انظر: موسوعة الفلسفة (١/١٣٦)، تاريخ الفلسفة الحديثة ص١١٧.

(٢) الجوهر وهو (المونادا) مصطلح فلسفي اشتهر به الفيلسوف الألماني ليبينتز، وهي عبارة عن جواهر بسيطة لا تقبل الامتداد ولا الانقسام، وهذه المونادات هي الذرات الحقيقية المكونة لعناصر الأشياء. والمونادات هي ذرات روحية وليست مادية، ويرىٰ أنها في أساسها طاقة دينامية. انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة ص١٤٢.

(٣) جوتفريد فلهلم لايبنتز (١٦٤٦-١٧١٦). هو فيلسوف وعالم طبيعة وعالم رياضيات ودبلوماسي ومكتبي ومحام ألماني الجنسية. يشغل لايبنتز موقعًا هامًا في تاريخ الرياضيات وتاريخ الفلسفة. أسس لايبنتز علم التفاضل والتكامل الرياضياتي. انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٣٧٤. تاريخ الفلسفة الحديثة ص١٣٥.

(٤) المذهب الحسي، وهو النزعة التجريبية، وهي ضد المذاهب العقلية، أكبر ممثليها جون لوك. انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة ص١٥٥.

(٥) جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤) هو فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي. زعيم المذهب الحسي. انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة ص١٥٥.

(٦) المثالية ما يقابل الواقعية، نظرية تذهب إلىٰ أن الأشياء الطبيعية لا يمكن أ، يكون لها وجود بمعزل عن ذهن يعيها، نشأت في القرن الثامن عشر علىٰ يد باركلي. انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٤٠٣.

(٧) جورج بيركلي (١٦٨٥-١٧٥٣) كان فيلسوفًا بريطانيًا-إيرلنديًا وأسقفا أنجليكانيا يعتبر من أهم مساندي الرؤية الجوهرية في القرن الثامن العشر الميلادي. انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٩٣.

(٨) ألدوس هكسلي عالم الفيزيولوجي الانجليزي (ولد ٢٦ يوليو ١٨٩٤ - توفي ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣). انظر: ويكيبيديا.

(٩) الفلسفة الحديثة عرض ونقد ص١٥٥.

وديكارت ليس فيلسوفًا بالمعنىٰ المصطلحي؛ فإن الفيلسوف غالبًا ملحد لا يتلقىٰ عن الأنبياء، ويقول بقدم العالم، وينفي علم الله تعالىٰ بالجزئيات، وينفي صفات الله تعالىٰ وأسماءه. وكان ديكارت يخالف في كل ذلك، وإن وافق الفلاسفة في بعض عقائدهم. فقد جعل فلسفتة لا تتعارض مع الدين، بل جعل وجود الله وكماله أساس كل يقين، ومصدر العلم الأسمىٰ.

وأحدثت آراؤه في الفلسفة والعلم هزة عنيفة، فقوَّضت مذهب أرسطو، وقضت علىٰ علم القرون الوسطىٰ، وقد وَصف الفلسفة اليونانية وخاصة فلسفة أرسطو بالفلسفة الباطلة، يقول ديكارت: (من بدأوا بدراسة الفلسفة القديمة، كلما زاد اشتغالهم بها قل في الغالب استعدادهم لتعلم الفلسفة الحقة)[١]، وهذا يعني أن فلسفة أرسطو والفلسفة القديمة هي الفلسفة الباطلة. فأراد إحلال فلسفته مكان فلسفة أرسطو[٢]، يقول ديكارت: (الفلاسفة أرادوا أن يفسِّروا وفقًا لقواعد منطقهم أشياء هي في ذاتها جلية واضحة؛ فلم يستطيعوا إلا أن يجعلوها أشدَّ غموضًا)[٣].

فمن أهم الآثار لديكارت في أوروبا أنه جاهد لتخليص الكنيسة من منطق وفلسفة أرسطو والمدرسيين، وكل ما يتعارض مع العقل، مما أدخلته الكنيسة في الدين وليس هو منه مما له علاقة بالطبيعيات، إلا أنه بسبب تعصبه للنصرانية عزل العقل عما فيها من عقائد باطلة. فقرر الإيمان بها بمعزل عن العقل، فلم يطبق منهجه العقلي عليها، وهو تناقض سببه التقليد

(١) مبادئ الفلسفة ص٤٠.

(٢) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم ص٦٨.

(٣) مبادئ الفلسفة ص٥٦.

الأعمىٰ في هذه الجانب، وهو من أكبر أسباب الإلحاد في مستقبل أوروبا كما سيأتي إن شاء الله.

ويقول الشيخ مصطفىٰ صبري: (فجاء ديكارت فألغىٰ ثنائية العقل ولإيمان، باطراح الإيمان وإعادة حقوق العقل إليه، وخلصه من الحسبانية قاضيًا علىٰ الشك بسلاح من الشك فابتدأ به دورًا جديدًا، وانتهت القرون الوسطىٰ التي جعلت الإيمان أصلًا في اليقين والعقل تابعًا له، فكان ذلك ضربة علىٰ النصرانية طبعًا). ويقصد باطراح الإيمان اطراح إيمان الكنيسة المزيف المتعارض مع الحقائق كما بين هو[1]، ويقول الشيخ: (ديكارت مجدد الفلسفة، وواضعها الثاني؛ لما قضىٰ علىٰ فلسفة القرون الوسطىٰ المتأثرة من النصرانية)[2].

فأهم إصلاح لديكارت عند هؤلاء وغيرهم نقل أوروبا من الشك في وجود الله والنفس إلىٰ اليقين، وتحرير العقول من جمود التقليد، وأيضا دمغه الإلحاد دمغًا بينًا[3]، يقول الشيخ مصطفىٰ صبري رَحِمَهُ اللَّهُ: (كان ديكارت أول من دكَّ دعائم الشك في الغرب وأبعده عن الفلسفة. وكان من حذاقته أنه جعل من الشكِّ نفسه الذي لا شيء يسلم به سواه عند الريبيين، يهدم الشك)[4].

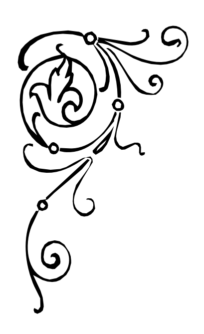
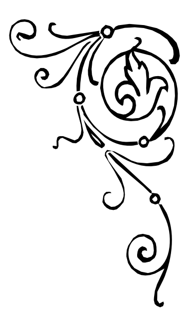
ومن أهم آثاره ما يقول د. عثمان أمين: (أنكر ديكارت علىٰ «المدرسيين» التجاءهم إلىٰ «الكيفيات الحسية» -كالحار والبارد .. إلخ-

(١) انظر: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين (٢/ ٢١٧).
(٢) المرجع السابق (٢/ ٢١٩) حاشية.
(٣) كما سيأتي إن شاء الله في الباب الثاني.
(٤) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين (٢/ ٢١٤).

واتخاذها مبادئ لتفسير الأشياء .. وهي ليست بالمعاني الواضحة بذاتها. إن التجديد الأكبر عند ديكارت -كما يقول «ليار»[١]- أنه أراد ألا يستخدم إلا مبادئ بديهية، وجعل بداهة العقل وحدها معيارًا للحق)[٢].



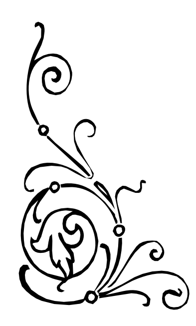
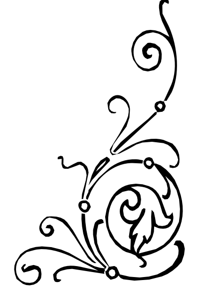
(١) لم أجد له ترجمة.
(٢) حاشية مبادئ الفلسفة ص٣٧.

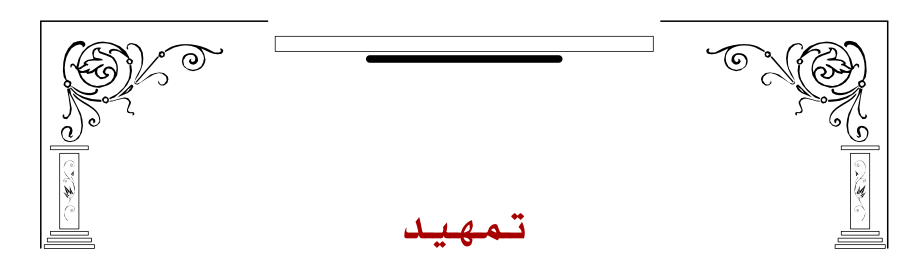



الباب الأول

منهج ديكارت المعرفي

الفصل الأول: المنهج الشكي عند ديكارت



تمهيد

ماذا يريد ديكارت من منهجه الشكي

مشروع ديكارت ومقصده من شكِّه هو البحث عن الحقيقة، وتمييز الحق من الباطل، وإخراج نفسه وغيره من الشك إلىٰ اليقين، هذا ما يبحث عنه ويهدف إليه، يقول: (علىٰ أن التقدُّم الذي أظنني تقدمته في البحث عن الحقيقة، قد بلغ بي غاية الرضا)[١].

ويقول: (كانت رغبتي شديدة دائمًا في أن أتعلَّم كيف أميِّز الحق من الباطل، كي أكون علىٰ بصيرةٍ في أعمالي، ولكي أسير علىٰ هدىٰ في حياتي)[٢].

فهو غير منكر لوجود الحقيقة، ويسعىٰ للحصول عليها، وسنعرف من هذا البحث إن شاء الله طريقته في الوصول للحقيقة، وهل وصل فعلًا للحقيقة.



(١) مقال عن المنهج، ص١١١.
(٢) مقال عن المنهج، ص١١٩.



المبحث الأول

الشك عند ديكارت سببه، وطريقته في الخروج منه

وصل ديكارت لشكٍّ مزعجٍ، وقد أفصح عن مدىٰ الشك الذي وصل إليه، فقال: (مثلي كمثل رجل يسير وحده في الظلمات)(١). ويقول: (لقد شككْتُ في جميع الأشياء التي أراها)(٢).

جاء ديكارت في وقت عمَّ فيه الشكُّ أوروبا كلها، بأسباب كثيرة، منها التقليد الأعمىٰ للكنيسة، مع إلغاء دور العقل، وظهور الاكتشافات العلمية، ويبين ديكارت أعظم أسباب شكه الخاصة به إضافة إلىٰ هذه الأسباب العامَّة، فيقول: (غُذِّيت بالآداب منذ طفولتي، وأُقنِعت أنه مستطاع بواسطتها علم بيِّن يقيني بكل ما هو نافع في الحياة، فاشتدت رغبتي في تعلمها؛ ولكنني ما كدت أنتهي من تلك المرحلة من الدراسة -حيث كانت العادة قبول الإنسان عند نهايتها في مرتبة العلماء- حتىٰ غيَّرتُ رأيي كل التغيير؛ ذلك بأنني وجدت نفسي يحيِّرُني من الشكوك والضلالات، ما بدا لي معه أنني لم أكتسب من اجتهادي في التعليم إلا تبيني شيئًا فشيئًا جهالتي. علىٰ أني كنت [في] مدرسة من أشهر مدارس أوروبا(٣)، كنت

(١) مقال عن المنهج، ص١٢٦.

(٢) التأملات ص٨٦.

(٣) يقصد مدرسة «لافليش» الملكية التي أسسها اليسوعيون في عهد «هنري الرابع» عام ١٦٠٤. يقول ديكارت عن هذه المدرسة أيضا: (ليس في العالم مكان أحكم بأن الفلسفة تُعَلم فيه خيرًا مما تُعلم في مدرسة لافليش). «أعمال ديكارت» (٢/٣٧٨). بواسطة: حاشية محمود محمد الخضيري علىٰ هذا الموطن.

أظنُّ أن يكون فيها علماء، إذا كان في أي موضع من الأرض علماء، ولقد تعلمت فيها كل ما كان يتعلم غيري، بل إنني لما لم أقنع بما كانوا يعلموننا من العلوم؛ تصفَّحت كل ما وصل إليَّ من كتب العلوم التي يعتبرونها أعجب العلوم وأندرها[(١)]، كنت أيضًا أعرف ما يحكم به الآخرون علي، ولم أشهد قط أنهم ينزلونني دون منزلة رفاقي، مع أن بعضهم كان يعد لأن يشغل مناصب أساتذتنا. ثم إنه كان يخيل إلي أن عصرنا في ازدهاره وفي خصبه بالعقول القوية، لا يقل عن أي عصر من العصور السابقة. وهذا أورثني حرية في أن أحكم بنفسي في كل من عداي، وأن أرىٰ أن ليس في الدنيا من العلم ما ينطبق علىٰ ما كنت قد صيرت من قبل إلىٰ القصد إليه)[(٢)].

ويقصد بذلك كما يقول «جلسون»: (أن عدم كفاية العلم الذي تلقيته هو السبب الوحيد في تضليلي؛ إذ لا يمكن تعليله بنقص في المدرسة التي تعلمت فيها ولا في أساتذتي، ولا في نفسي ولا في زماني)[(٣)].

وقد ذكر ديكارت جميع علوم عصره التي كانت متاحة له فرأىٰ أنه ليس فيها ما يورث اليقين، مع إخراجه علوم الدين عن نظر عقله. وكذا نبذ

(١) يقول الدكتور الخضيري معلقًا في الحاشية: (يعني بالعلوم العجيبة السحر وأحكام النجوم والكيمياء (كما كانت قديما) وغيرها من العلوم التي لا يطلع علىٰ خفاياها إلا القليل. ويعني بالعلوم النادرة: ما عز علىٰ العامة مناله).وقد بين ديكارت بطلان بعض هذه العلوم، يقول: (وأما العلوم الباطلة فلقد كنت أعتقد أني بلغت من عرفان قيمتها حدا لا أكون معه عرضة للخديعة بوعود الكيماوي أو بتكهنات المنجم، ولا بتضليلات الساحر، ولا بالتصنع أو الزهو ممن دينهم أن يظهروا بأكثر مما يعلمون) المقال ص١١٨.

(٢) مقال عن المنهج ص١١٣. وانظر: التأملات ص٦٥.

(٣) انظر: حاشية مقال عن المنهج ص١١٣.

التقليد والعادة بسبب كثرة اختلاف أساتذته والناس في ذلك وكثرة تباينهم كالتباين الموجود في آراء الفلاسفة في القرون الوسطىٰ[(١)] الذين عظم بغضه ونفوره منهم. يقول: (موافقة الكثرة ليست دليلًا ذا شأن علىٰ الحقائق التي يتعسر كشفها؛ فإنه أقرب إلىٰ الاحتمال أن يجدها رجل واحد من أن تجدها أمة بأسرها؛ وإذن فلم أكن لأستطيع أن أختار رجلًا كانت تبدو لي أفكاره واجبة التفضيل علىٰ آراء الآخرين)[(٢)].

ولا ريب أن في كلامه هذا جانب من الصواب كبير، فالكثرة لا تدل علىٰ الحق بمفردها، بل هي مذمومة في كثير من المواطن، وقد ذكر هذا في أكثر من آية في القرآن، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

لكن ديكارت فاقد للمرجع المعصوم الذي لا يجوز خلافه ولا يتطرق إليه الخطأ، والذي يُتحاكم إليه، وهو الوحي، وهو ما سببته له الكنيسة وانحرافها.

فلما تبرأ ديكارت من العلوم التي تلقاها ومن التقليد؛ قرَّر أنه لا طريق للوصول إلىٰ اليقين إلا التفكير بعقله الحر المستقل، وهو ما يسميه «النور الفطري»، ويستعين بالتجارب التي تثمرها له مخالطة الناس من جميع الطبقات لترك المألوف في كتبه وبلاده، يقول: لذلك (وجدتني كأنني مضطر إلىٰ أن أتولىٰ بنفسي توجيه نفسي)[(٣)].

---

(١) انظر: مقال عن المنهج ص١١٩.
(٢) انظر: مقال عن المنهج ص١٢٦.
(٣) انظر: مقال عن المنهج ص١٢٦.

ولا شك أن في هذا مشقة وعسر وطول طريق، ويستحيل أن يصل بمجرد عقله لحقائق كثيرة دينية ودنيوية، لكنه من أعظم أسباب انحراف الكنيسة، وقد رحمنا الله في الدين الحق بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإلا لكنا في جاهلية وشك وحيرة، ولا غنىٰ للعقول عن الأنبياء وعن الوحي.

ويقول ديكارت: (من أجل هذا فإنني ما كدت أن تسمح لي السن بالتحلل من ربقة معلمي حتىٰ هجرت كل الهجْر دراسة الآداب. وإذ صمَّمت ألا ألتمس علمًا إلا ما اشتملت عليه نفسي)[(١)]، ويقول: (وقد لقيت في هذا علىٰ ما يبدو لي نجاحًا لم أكن لألقاه لو أنني لم أفارق قط بلادي وكتبي)[(٢)].

فرأىٰ ديكارت رفض كل ما تعلمه في مدارسه، واختيار ما يقبله عقله الحر فقط، يقول: (ولكن فيما يختص بكل الآراء التي قبلتها واعتقدت بها حتىٰ يومئذ، فإني لم أكن لأقدر علىٰ خير من انتزاعها جملة واحدة من اعتقادي؛ وذلك لكي أحل محلها فيما بعد إما غيرها خيرًا منها، أو أعيدها نفسها بعد أن أكون قد سويتها بميزان العقل. ولقد رسخ في اعتقادي أنني بهذه الوسيلة أكثر توفيقًا في سياسة حياتي مما لو لم أبن إلا علىٰ أسس عتيقة)[(٣)]. فقرر كما يقول: (التخلص من كل الآراء التي اعتقد بها من قبل)[(٤)].

وهكذا سبيل العلوم الباطلة، وسبب البعد عن الوحي الغير محرف، وهو يبين مدىٰ حاجة الخلق له. ومع هذا فمنهجه العقلي لن ينفعه للخلوص

---

(١) مقال عن المنهج، ص١١٨.
(٢) مقال عن المنهج، ص١٢٠.
(٣) مقال عن المنهج، ص١٢٣.
(٤) مقال عن المنهج، ص١٢٥.

من الخرافات التي فرضتها الكنيسة، وفي الوصول لبعض الحقائق بطريق غير معصومة. فالعقل إذا فرضنا سلامته فإنه وحده لا يكفي في جلب المعارف؛ فإن هناك معارف مصدرها الحس ولا حاجة فيها للعقل، ومعارف مصدرها التواتر والإجماع، ومعارف لا مصدر لها إلا الوحي، ويحار فيها العقل. وعلىٰ منهج ديكارت ستكون المعارف قليلة جدًا، خاصة فيما يتعلق بالإلهيات.

وهذا يبين أن قصر ديكارت الوصول للحقيقة علىٰ العقل سفسطة وقصور بين، ولولا أنه هو لم يتابع العقل فيما يتعلق بالدين، وإلا لكان ملحدًا. فالعقل في الإلهيات مفتقر إلىٰ الدين، ولمَّا رجع الناس في أمور الإلهيات إلىٰ العقول ضلُّوا، واختلفوا أكثر اختلاف وجد علىٰ وجه الأرض، فالعقل بدون الوحي الذي يأتي به الأنبياء عليهم السلام كالبصر بدون الضوء، لا يرىٰ شيئًا، والموقف الحقيقي للعقل بالنسبة للدين الحقَّ هو أنه تابع له، ومحتج ومؤيِّد وخادم له، لا يعارضه، ومستنبط منه العلل والحكم، ومتدبِّر ومتفقه، فوظيفته مع الدين بيانية لا إنشائية، فلا استقلال له عن الدين ولا يقدم بين يديه. وللعقل وظيفة الاستدلال علىٰ وجود الخالق، ووحدانيته، وصدق الرسول وصحة نبوته، فالعقل يولِّي الرسول ثم يعزل نفسه فلا يعارضه، لكن مع تحريف الدين فلم يبق للعقل إلا الضلال والشقاء.

ولم يكتف ديكارت بمجرد الشك، بل اعتبر أن ما يتطرق إليه أدنىٰ شك باطلٌ ومعدومٌ، يقول ديكارت: (نجد الذهن يستعمل حريته الخاصة، فيفترض أن جميع الأشياء التي يقع له عن وجودها أدنىٰ شك هي أشياء معدومة)[(١)]. ويقول أيضًا مبينا منهجه الشكي: (لرغبتي أن أفرغ للبحث عن

(١) التأملات ص٥٥.

الحقيقة، رأيت أنه يجب علي أن أفعل نقيض ذلك، وأن أنبذ كل ما أستطيع أن أتوهم فيه أقل شك، علىٰ أنه باطل علىٰ الاطلاق)[1]. ويقول: (قد يكون من النافع جدًّا أن نعد الأشياء التي قد تتخيل فيها أقل شك غير صحيحة، حتىٰ إذا وجدنا أن بعضها رغم هذا الاحتياط، يبدو لنا بجلاء أنه صحيح، واعتبرناه يقينيا جدًّا، وعددناه أسهل ما يمكن معرفته)[2]. ويقول: (سأتخذ سبيل الاعتقاد بأن جميع هذه الآراء ليست مشكوكًا فيها بحسب، بل إنها باطلة كل البطلان، وأظل كذلك إلىٰ أن يتعادل هذا الحكم الجديد مع الحكم القديم في الميزان، فيبقىٰ ذهني حرًّا كل الحرية)[3].

ومن هنا انطلقت العقلانية، وسمي ديكارت أبو المذهب العقلاني، وقد تطور هذا المذهب حتىٰ أُلِّه العقل، لظهور تعارضه مع كثير مما في الكنيسة، ثم نقل ذلك التغريبيون إلىٰ المسلمين.

وقاعدة ديكارت هذه جائرةٌ جدًّا؛ فإن جعلَ ما فيه أدنىٰ شك باطل علىٰ الاطلاق، يلزم منه القول ببطلان كثير من الحقائق التي لا يشك فيها غيره، أو التي تطرق إليه فيها نوع وسوسة لا يلتفت إليها، وأيضًا هو نفيٌ لاعتقاد أو عمل ما لا يمكن أن يوصل إليه إلا بغلبة الظنِّ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: (المسائل التي تنازع بنو آدم فيها؛ لأن يحصل للإنسان فيها ظن غالب خير من أن يكون في الحيرة والجهالة، أو يكون في التقليد أو الحجج الفاسدة كما هو الواقع كثيرًا)[4].

(١) مقال عن المنهج، ص١٤٨.
(٢) مبادئ الفلسفة ص٥٣.
(٣) التأملات ص٦٨.
(٤) بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٣٥٨).

ويقول ديكارت: (حكمت بالبطلان علىٰ كل ما كنت أعده من قبل صحيحًا جدًا؛ لا لشيء إلا لأني لاحظت أن في الإمكان الشك فيه من بعض الوجوه)[١].

فيقال له: عدم العلم ليس علما بالعدم؛ لأن كونه يشك في الشيء لا يعني أن غيره يشك، ولا يعني الحكم بالبطلان علىٰ ذلك الأمر الذي شك فيه. لذلك فقاعدته هذه واضحة البطلان، وفي غاية من الضلال والتحكم، وهي سبب إنكار ديكارت لكثير من الحقائق المقطوع بها. نعم تصح لو كان شكه في أمور كان يظنها حقًّا وهي ليست كذلك.



(١) التأملات ص١٩١.



المبحث الثاني

الشك المنهجي والحقيقي

الشك عند ديكارت ليس هو الشك الحقيقي المطلق، شك اللاأدريين[(١)]، بل هو يريد شكًّا يوصله إلىٰ اليقين، وإلىٰ المعرفة الحقيقية، وهو الشك المنهجي، يقول ديكارت: (ولما كنت أخص تفكيري في كل شيء بما يمكن أن يجعله موضعًا للشك، ويكون سببًا في خطئنا، فإنني انتزعت مع ذلك من عقلي كل الأخطاء التي استطاعت أن تتسرب إليه من قبل، وما كنت في ذلك مقلدًا اللاأدرية الذين لا يشكُّون إلا لكي يشكوا، ويتكلفون أن يظلوا دائمًا حيارىٰ؛ فإني علىٰ عكس ذلك، كان كل مقصدي لا يرمي إلا إلىٰ اليقين)[(٢)].

فشك ديكارت اتخذه وسيلة للوصول إلىٰ اليقين، ويقول: (نجد الذهن يستعمل حريته الخاصة، فيفترض أن جميع الأشياء التي يقع له عن وجودها أدنىٰ شك هي أشياء معدومة)[(٣)].

(١) شك اللاأدريين: هو الشك الحقيقي، أو الشك المطلق الذي ينكر وجود الحقيقة والمعرفة، وليس الذي يريد الوصول لها. انظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة ص٢٦٨.
(٢) مقال عن المنهج، ص١٤٤.
(٣) التأملات ص٥٥.

ولا شك أن في كلامه حقًا وباطلًا، فإن الشك في صحة الشيء إلىٰ أن يتأكد من صحته وهو الشك المنهجي منهج جيد ونافع، وقد سبق إليه علماء المسلمين كما في علم العلل عند المحدثين المتقدمين؛ فإن المحدث الناقد إذا شك في حرف من الحديث تركه كله، وإذا اختلف في صحة الحديث، فالأصل عدم الصحة، وجمعه لطرق الحديث هو للتأكد من صحة الإسناد، لا لتقوية الإسناد فقط؛ بل هو لاكتشاف الخطأ أكثر من كونه للعضد؛ لأن الأصل عندهم العدم، عدم الصحة، فالأصل عندهم الشك حتىٰ يأتي ما يدل علىٰ الصحة[1].

لكن -وهو ما يجب التنبيه عليه- هذا الشك في غير اليقينيات، التي لا يصح الشك فيها؛ فلا يصح الشك في أدلة نقلية قطعية كالمجمع عليه الإجماع القطعي، أو المتواترات، أو الآحاد التي وصلت للقطع، أو في الأدلة العقلية القطعية، أو في المحسوس، ونحو ذلك، بل لا يصح الشك فيما بلغ مبلغ الظن الغالب في وجوب العمل به.

أما ديكارت وهذا خطورة مذهبه فقد وسَّع دائرة الشك فشملت كثيرا من ذلك، بل لم يبق شيء وصل فيه إلىٰ اليقين سوىٰ وجود الله تعالىٰ، ووجود النفس، يقول: (اعتزمت الشك في الأشياء جميعًا، إلا وجودي ووجود الله)[2]. فهو في الحقيقة بقي في الشك الحقيقي في كثير من الجوانب، بسبب تضييق أدلة اليقين التي اتخذها لنفسه.

لذلك فمذهب ديكارت وإن نفع في أوروبا في الوصول إلىٰ بعض اليقينيات القليلة التي فقدوها فهو غير ذا فائدة عند من سلم منها.

---

(١) انظر: «الشك المنهجي وتطبيقاته عند علماء الحديث»، للدكتور خالد بن منصور الدريس.

(٢) التأملات ص١٨٥.



المبحث الثالث

موقف ديكارت من المحسوس

شك ديكارت في الحواس، وذكر أنه شك فيها لسببين:

الأول: أن الحواس كما يقول تخدع أحيانًا، يقول: (لما كانت حواسنا تخدعنا أحيانًا، أردت أن أفرض أنه ليس من شيء في الواقع كما تجعلنا الحواس نتخيله)[١]. ويقول: (تبينت بالتجربة أن الحواس تخدعني أحيانًا، وإذن فمن الحيطة ألا أعود إلىٰ الثقة بالحواس)[٢]. ويقول: (من الحكمة ألا نطمئن كل الاطمئنان إلىٰ من خدعونا ولو مرة واحدة)[٣].

وبهذا بالغ في نفي الحس مبالغة هي من السفسطة البيِّنة، يقول: (إذا صح أني لا جسم لي، صحَّ أيضًا أني لا قوة لي علىٰ المشي ولا علىٰ التغذي)[٤]. ويقول: (كل ما يتعلق بطبيعة الجسم أحلام أو تخيُّلات)[٥].

وهذا الشك في الحواس إما أنه عن عناد أو عن مرض أو تقليد أعمىٰ وهو الواقع عند ديكارت كما سيأتي إن شاء الله.

---

(١) مقال عن المنهج، ص١٤٩.
(٢) التأملات ص٦٦.
(٣) التأملات ص٧٣.
(٤) التأملات ص٩٨.
(٥) التأملات ص١٠١.

وخداع الحواس عنده مثَّل لها بانكسار العصا في الماء، وهي غير منكسرة، وكذا تغير المحسوسات من وقت لآخر؛ فليس العسل والشمع أول ما يخرج من النحل مثله بعد عدة أيام. وهذه في الحقيقة مغالطة؛ لأن انكسار العصا في الماء هو بسبب العوامل الداخلة من خارج لا أنه انكسار في نفس الأمر. وكذا تغير الشمع هو بسبب عوامل خارجية طرأت عليه، لو سلم منه لما تغيَّر. فكأنه يريد للمحسوسات المخلوقة ألا تتغير بإطلاق مهما حاول محاول تغييرها، ومهما طرأ عليها من عوامل خارجية، وهذا إنكار للحقائق وفرار من تغير المحسوسات إلىٰ إنكار أثر العوامل الخارجية، وفرار من شيء مع الوقوع في شر منه.

ويضرب ديكارت مثلا لخداع الحواس بكون الشخص يرىٰ النجم البعيد صغيرًا وهو في الواقع كبير[(١)]، وهذا أيضًا من جنس ما قبله فليس هو خداع الحواس؛ لأن حجم الكوكب ثابت في نفس الأمر، وإنما التغير في قربنا وبعدنا منه.

ومن الأمثلة التي ضربها، قوله: (لا أرىٰ من النافذة غير قبعات ومعاطف، قد تكون غطاء لآلات صناعية تحركها لوالب، لكني أحكم بأنهم ناس)[(٢)]. يعني أن حكمه عليهم بأنه ناس مشكوك فيه، وقد يكون مجرد تخيل، فيقال: لكنه لم يشك في وجود القبعات والمعاطف، والآلات الصناعية، ويقال: لو كانوا بغير قبعات لم يشك أنهم أناس، فهكذا حججه في هذه المسائل في غاية من الضعف وظهور البطلان.

(١) انظر: مقال عن المنهج، ص١٦٥، والتأملات ص٢٤٦.
(٢) التأملات ص١٠٨.

الثاني: يرىٰ ديكارت أن من أسباب شكه في الحواس المنامات التي يرىٰ فيها كأنه في اليقظة، يقول: (لما رأيت أن نفس الأفكار التي تكون منا في اليقظة، قد ترد علينا أيضًا ونحن نيام، دون أن تكون واحدة منها إذ ذاك حقيقية؛ اعتزت أن أرىٰ أن كل الأمور التي دخلت إلىٰ عقلي لم تكن أقرب إلىٰ الحقيقة من خيالات أحلامي)[١].

ويقول: (لا توجد قرائن يقينية لتمييز اليقظة من النوم؛ فلا سبيل لي إلا أن أنظر بعين الشك إلىٰ جميع ما تلقيته عن طريق الحواس)[٢]. ويقول: (أرىٰ بغاية الجلاء أنه ليس هناك أمارات يقينية نستطيع بها أن نميز بين اليقظة والنوم تمييزًا دقيقًا، فيساورني الذهول، وإن ذهولي لعظيم حتىٰ إنه يكاد يصل إلىٰ إقناعي بأني نائم)[٣].

وهذا ضرب من الجنون، وبه لا يبقىٰ لديكارت أي حقيقة وأي يقين حتىٰ في أدلة الفيزياء والرياضيات، لكنه حاول استدراك ذلك بقوله: (في حين أن الحساب والهندسة .. فسواء كنت متيقظًا أو نائمًا، هناك حقيقة ثابتة، وهي أن مجموع اثنين وثلاثة هو خمسة دائمًا، وأن المربع لن يزيد علىٰ أربعة أضلاع)[٤]. والحقيقة أن هذا ثابت في كل الحقائق الحسية أو الغيبية، والتي أنكر كثيرًا منها، بل هي أعظم ثقة ويقينًا بها عند العقلاء؛ فإن المحسوس والمتواتر يبقىٰ كما هو سواء كنا متيقظين أو نائمين، وبه يعرف سبب من أكبر أسباب الشك عند ديكارت، وهو جعله أي عارض سببًا في الشك في الحقائق نفسها، وهو من أبطل الباطل، وتناقض منه

(١) مقال عن المنهج، ص١٤٩.
(٢) التأملات، ص٦٦.
(٣) التأملات ص٧٤.
(٤) التأملات ص٧٧.

صريح، لذلك يقال له: (لا يلزم من كونك لا تعرف عن نفسك شيئا بيقين إلا أنك شيء يفكر، أنك لست شيئا غير ذلك في الحقيقة، ومعرفتك ربما لا تمتد إلىٰ جميع أجزاء كيانك، وربما أن الجسم أحد هذه الأجزاء)(١).

فرأىٰ ديكارت لهذين السببين عدم الوثوق بالحس، وأنه: (لا يستطيع خيالنا ولا حواسنا أن تجعلنا نتأكد من شيء، إذا لم يتوسط عقلنا في ذلك)(٢).

والحق أن التفريق بين النوم واليقظة لا يحتاج إلىٰ توضيح لوضوحه. وإن كان قد يمر بالإنسان حالات يوسوس فيها، لكن الوسوسة لا ترقىٰ إلىٰ الشك، وتكون في اليقينيات الكبرىٰ، فكيف بغيرها، بل تكون مع شدة إنكارها من علامات اليقين الكامل، فإذا سببت الوسوسة شكا لم يبق يقين، وهي سرعان ما تزول، بشرط انتهاء الشخص عن التفكير فيها إذا كانت في أمور الإلهيات. فعن أبي هريرة ﵁ قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: (**وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟**) قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: (**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**)(٣). وفي حديث عَبْدِ اللّهِ بن مسعود ﵁ قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْوَسْوَسَةِ. قَالَ: (**تِلْكَ مَحْضُ الإِيمَانِ**)(٤). ومن ذلك حديث أبي هريرة أيضًا قال رسول الله ﷺ: (**يَأْتي الشَّيْطانُ أحَدَكُمْ فَيَقُولَ: مَن خَلَقَ كَذا وكَذا؟ حتَّىٰ يَقُولَ له: مَن خَلَقَ رَبَّكَ؟ فإذا بَلَغَ ذلكَ، فَلْيَسْتَعِذْ باللَّهِ ولْيَنْتَهِ**)(٥).

(١) انظر: حاشية التأملات ص٩٦.
(٢) مقال عن المنهج، ص١٦٢. وانظر: التأملات ص٥٠.
(٣) رواه مسلم (١٣٢).
(٤) رواه مسلم (١٣٣).
(٥) رواه مسلم (١٣٤).

ولا عجب في الشك بسبب الوسوسة وهل كان كثير من كبريات مذاهب الفلاسفة سوىٰ وساوس سودت بها الصفحات.

وقد أبدىٰ ديكارت صعوبة إنكار الحواس، بل ربما تشعر أحيانًا أنه يثبت الجسم من حيث لا يشعر[1].



(١) انظر مثلا: التأملات ص٥٧، ١٠٢، ١٣١، ١٣٢.



المبحث الرابع

الكوجيتو الديكارتي

لم يبق لديكارت أمر لا يتطرَّقه أدنىٰ شك إلا كونه يفكِّر، ورأىٰ أنه لا يمكن أن يشك في كونه مفكرًا، فبدأ من هذا ووضع قاعدته الشهيرة التي أُطلق عليها «الكوجيتو»[(١)] وهي قوله: (أنا أشك إذن فأنا موجود) وهذا إثبات منه لوجود النفس.

ويقول: (لم أكن أعرف شيئًا يخص ماهيَّتي إلا أنني شيء مفكر، أو شيء له في ذاته ملَكة التفكير)[(٢)]. ويقول: (كل ما عرفت حتىٰ الساعة هو أنني شيء مفكر)[(٣)]. ويقول: (نفس كوني أفكر في الشك في حقيقة الأشياء الأخرىٰ، يستتبع استتباعًا جدُّ واضح وجد يقيني أنني كنت موجودًا)[(٤)].

---

(١) **الكوجيتو** باللاتينية: (Cogito , ergo sum) هو المبدأ الذي انطلق منه ديكارت لإثبات الحقائق بالبرهان وهو عبارة عن قضية منطقية ترجمتها بالعربية هي (أنا أشك إذا أنا موجود) وهذه هي ترجمتها الصحيحة لأن البعض يترجمها (أنا أفكر إذا أنا موجود) وهذه ترجمة خاطئة لها، انظر: مجلة جامعة دمشق، المجلد ٣٢، العدد الثاني (٢٠١٦) ص١٦، (دور الكوجيتو الديكارتي في بناء العلم الحديث) لعبدالفتاح سعيدي، التمهيد.

(٢) التأملات في الفلسفة الأولىٰ ص٤٨.

(٣) التأملات ص١٢٢.

(٤) مقال عن المنهج، ص١٥١.

وبيَّن ديكارت معنىٰ هذا التفكير فيقول: (وإن شيئًا يفكِّر هو شيءٌ يشكُّ ويفهم ويتصور ويثبت وينكر ويريد ويتخيل ويحس؛ لأن جميع هذه الأفعال إنما هي من أنحاء التفكير)[١]. وقال: (فما أنا علىٰ التدقيق إلا شيء مفكِّر؛ أي ذهن أو روح أو فكر أو عقل)[٢]، ويقول عن المفكر أيضًا أنه: (يعرف القليل من الأشياء، ويجهل الكثير، ويريد ولا يريد، ويتخيَّل ويحس أيضًا)[٣]، فالمفكِّر عنده كل ما هو مصحوب بالوعي.

يقول ديكارت عن هذه النتيجة: (كانت من الثبات والوثاقة واليقين، بحيث لا يستطيع اللاأدريون زعزعتها بكل ما في فروضهم من شطط بالغ، حكمت أني أستطيع مطمئنًا أخذها مبدأ أول للفلسفة التي أتحرَّاها)[٤].

وكون الإنسان لم يصل إلىٰ اليقين إلا بكونه مفكرًا، يبين المدىٰ الذي وصل إليه الغرب من الضلال، بحيث شكُّوا في وجود أنفسهم، فينطبق عليهم قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الحشر].

فقول ديكارت أنا أشك إذًا أنا موجود، يدل علىٰ مدىٰ ما وصل إليه من الشك، فهو منطق لا يحتاجه من البشر إلا السوفسطائيين. وكذلك كانت أوروبا في عصره فانتفعوا به؛ لإخراجهم من الشك في بعض الأمور القليلة.

ويقول الشيخ مصطفىٰ صبري معلقًا علىٰ «الكوجيتو»: (وكان الفيلسوف ديكارت انتقل من إدراكه، إلىٰ وجود صاحب هذا الإدراك؛ أعني

---

(١) التأملات ص٨٨، ١٠١.

(٢) التأملات ص١٠٠.

(٣) التأملات ص١٣١. وانظر: المبادئ ص٥٦.

(٤) مقال عن المنهج، ص١٤٩.

نفسه، واتخذ هذه المعرفة مبدأً، وأساسًا لجميع معارفه. وأنا أقول: أقوىٰ بكثير من هذا الانتقال؛ الانتقالُ من الإدراكات التي يتضمنها نظام الكائنات، إلىٰ وجود الله، الذي هو صاحب تلك الإدراكات؛ لأن ذاك الإدراك الذي انتقل منه ديكارت إلىٰ وجود نفسه كان إدراكًا واحدًا، هو الإدراك المستفاد من الشك، الذي هو أيضًا إدراك. لكنه إدراك متردِّد بين الإيجاب والسلب. أما الإدراكات المفهومة من نظام الكائنات، وفيه إدراك «ديكارت» أيضًا، فإدراكات تملأ السماوات والأرض، وما بينهما)[١].



(١) موقف العقل والعلم والعالم (٢/ ٤٤٣).



المبحث الخامس

خطوات منهج ديكارت

استبدل ديكارت مبادئ المنطق القديم بمبادئ ومنطق خاص به، سهل ليس فيه تعقيد، وهو منهجه الذي ذكره في جلِّ كتبه، وأراد إحلال فلسفته مكان فلسفة أرسطو[(١)]، ويقوم منطقه علىٰ أربعة مبادئ أو قواعد ذكرها باختصار وهي:

الأولىٰ: «**قاعدة اليقين**»، وهي كما يقول ديكارت: (ألا أقبل شيئًا ما علىٰ أنه حقّ ما لم أعرف يقينًا أنه كذلك؛ بمعنىٰ أن أتجنب بعناية التهور، والسبْق إلىٰ الحكم قبل النظر، وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميُّز، بحيث لا يكون لديَّ أي مجال لوضعه موضع الشك)[(٢)]. ويقول: (أعقد العزم علىٰ ألا أطلق حكمًا أبدًا إلا علىٰ ما كان تصوره تام الوضوح، وتلك وسيلتي في أن أتحرَّر من الخطأ علىٰ الدوام، وفي أن أصل في الوقت نفسه إلىٰ الحق)[(٣)].

وتسمىٰ هذ القاعدة بـ «قاعدة اليقين»؛ لأنها تدخل إلىٰ يقين بديهي بسيط لا يتطرق إليه شك. وهي بداية البحث عن الحقيقة عنده، وعندما تطبق هذه القاعدة علىٰ الفلسفة تبدأ باعتبارها شكًا منهجيًا، ذلك لأنها تنص

(١) انظر: مبادئ الفلسفة ص٤٩.
(٢) مقال عن المنهج، ص١٣١.
(٣) التأملات ص١٧٥.

علىٰ (ألا أقبل شيئًا علىٰ أنه حق ما لم أكن علىٰ يقين أنه كذلك)، فنص القاعدة يبدأ بالسلب، أي بألا يقبل شيئًا، وهذا هو الشك الذي هو الخطوة الأولىٰ في المنهج الفلسفي عند ديكارت(١). فلا يثبت عند ديكارت حقيقة غير وجود الله تعالىٰ إلا ما اجتمع فيه صفتان: الأولىٰ: تميُّز الأشياء التميُّز الحقيقي الذي هو واقعيتها، والثاني: ووضوحها بحيث لا يتطرق إليها أدنىٰ شك، وما سوىٰ ذلك فهو عند ديكارت باطل، كما يقول: (جميع الأشياء التي نتصورها تصورًا واضحًا جدًّا ومتميزًا جدًّا هي كلها صحيحة)(٢)، ويقول: (والمعرفة الواضحة عندي هي المعرفة الحاضرة الجالية أمام ذهن منتبه)(٣).

ومعلوم أن الوضوح والتميز شيء نسبي إضافي، وبه تكون المعرفة عند ديكارت نسبية.

الثانية: «**قاعدة التحليل والتأليف**» وهي كما يقول: (أن أقسِّم كل واحدة من المعضلات التي سأختبرها إلىٰ أجزاء علىٰ قدر المستطاع، علىٰ قدر ما تدعو الحاجة إلىٰ حلها علىٰ خير الوجوه)(٤). أي التركيب التدريجي للأشياء بعد أن حللت إلىٰ بسائطها، ويجب تحقيق الغرض في النهاية عن طريق التجربة(٥).

الثالثة: «**قاعدة التركيب**» وهي كما يقول ديكارت: (أن أُسِّير أفكاري بنظام بادئًا بأبسط الأمور وأسهلها معرفة؛ كي أتدرج قليلًا قليلًا حتىٰ أصل

---

(١) انظر: مقال عن المنهج ص١٣٢. ترجمة ديكارت في (ويكيبيديا).
(٢) انظر مثلا: التأملات ص٥٩، ١٣٢.
(٣) مبادئ الفلسفة ص٧٩.
(٤) مقال عن المنهج، ص١٣١.
(٥) انظر: الله أساس المعرفة والأخلاق عند ديكارت. نظمي لوقا ص١٣٢.

إلىٰ معرفة أكثر ترتيبًا، بل وأن أفرض ترتيبًا بين الأمور التي لا يسبق بعضها الآخر بالطبع)[١].

الرابعة: «قاعدة بالاستقراء التام» وهي كما يقول: (أن أعمل في كل الأحوال من الإحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلني علىٰ ثقة من أنني لم أغفل شيئًا)[٢].

وبذلك فإن قواعد المنهج الأربعة، من يقين وتحليل وتركيب ومراجعة واستقراء، هي نفسها طريقة التفكير المتبعة في الرياضيات والهندسة. ويحاول ديكارت تطبيقها علىٰ موضوعات الفلسفة؛ لأنه أراد الوصول في الفلسفة إلىٰ نفس درجة الوضوح واليقين الذي وصلت إليه الرياضيات والهندسة. يقول ديكارت بعد أن ذكر مبادئه في القسم الثاني من «مقال عن المنهج»، مبينًا أثر منهج الرياضيات عليه: (هذه السلاسل الطويلة من الحجج وكلها بسيطة وسهلة، التي اعتاد أصحاب علم الهندسة الاستعانة بها للوصول إلىٰ أصعب براهينهم، يسَّرت لي أن أتخيل أن كل الأشياء التي يمكن أن تقع في متناول المعرفة الانسانية تتتابع علىٰ طريقة واحدة، وأنه إذا تحامىٰ المرء قبول شيء منها علىٰ أنه حق مع أنه ليس حقًا، وإذا حافظ دائمًا علىٰ الترتيب اللازم لاستنباط بعضها من بعض، فإنه لا يمكن أن يوجد بين تلك الأشياء ما هو من البعد بحيث لا يمكن إدراكه أو من الخفاء بحيث لا يستطاع كشفه . . ولما لاحظت أنه بين كل من بحثوا من قبل عن الحقيقة في العلوم، ليس إلا الرياضيين هم الذين استطاعوا أن يجدوا بعض البراهين، أعني بعض الحجج الوثيقة اليقينية، فإنني لم أشك في أنه بنفس

(١) مقال عن المنهج، ص١٣١.
(٢) مقال عن المنهج، ص١٣١.

تلك الأشياء كانوا يدرسون علىٰ أني لم آمل منها أي فائدة أخرىٰ غير تعويد عقلي علىٰ أن يألف الحقائق، وألا يقنع البتة بالحجج الباطلة)[١].

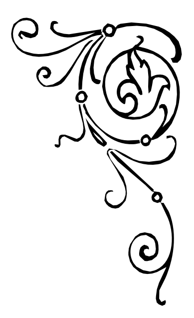
ولا شك أن في الرياضيات من الطرق الحسابية والمعادلات ما يوصل إلىٰ ليقين فيما يتعلق بها، وهذا اليقين والطمأنينة من الحسابات الرياضية جعل ديكارت لا يقنع في غير الرياضيات بسواه، لكن هذا يدل علىٰ مدىٰ فقد ديكارت لليقين حتىٰ لم يجده إلا في الرياضيات، التي وإن أوصلت إلىٰ اليقين في حساباتها، لكنه لا يمكن أن توصل لليقين في كثير من العلوم غيرها، وخاصة لأهم العلوم والتي كل العلوم بالنسبة إليها كقطرة في بحر لجي وهي الإلهيات.

ويقول ديكارت ملخصا منهجه: ([أريد] أن أنزع من عقلي كل الآراء الفاسدة، التي كنت تلقيتها قبل ذلك، أو بان أجمع التجارب الكثيرة، كي تكون فيما بعد مادة استدلالاتي، وأن أروض نفسي دائما علىٰ المنهج الذي ألزمت نفسي به ليتزايد رسوخي فيه)[٢].



(١) مقال عن المنهج، ص١٣٢.

(٢) مقال عن المنهج، ص١٣٦.

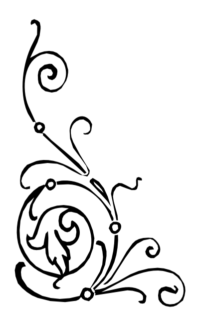



الفصل الثاني

وفيه مبحثان

المبحث الأول: موقف ديكارت من الفلسفة القديمة والمنطق الأرسطي.

المبحث الثاني: بين الغزالي وديكارت.






المبحث الأول

موقف ديكارت من الفلسفة القديمة والمنطق الأرسطي

موقف ديكارت من الفلسفة اليونانية والمنطق الأرسطي مما يُحسب له، وهو أهم ما قدمه هو و«فرانسيس بيكون» للأوروبيين، وقد تأثرا في ذلك بنقد شيخ الإسلام ابن تيمية للمنطق، وقد لاحظ ذلك كثير من الباحثين، يقول محمد عبدالله الشرقاوي: (ولنلاحظ أن «فرنسيس بيكون» قد نقد منطق أرسطو ونقضه بما نقده به ونقضه المفكر المسلم ابن تيمية في كتابيه «نقض المنطق» و«الرد علىٰ المنطقيين»)[١]. ويقول أستاذنا الشيخ محمود محمد مزروعة حفظه الله: (قد اتضح صدق كلامنا عندما قمنا بمقارنة موضوعية بين نقود المحدثين من الغربيين للمنطق اليوناني ونقود ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث انبلجت بوضوح الصلة القوية بين النوعين من النقود، بحيث لم يكن بينهما من فروق سوىٰ في الأسلوب وعرض الفكرة)[٢].

فديكارت يرىٰ أن الفلسفة اليونانية لا تورث اليقين؛ يقول: (ولن أقول عن الفلسفة، إلا أنه لمَّا رأيت أن الذين كانوا يتدارسونها هم خيرة العقلاء ممن عاشوا منذ عصور كثيرة، ومع ذلك ليس فيها بعد أمر لا يجادل فيه، أي ليس مشكوكًا فيه)[٣]. فهو يرىٰ أن فلسفة أرسطو وهي فلسفة القرون

(١) مدخل نقدي لدراسة الفلسفة، الطبعة الثانية، دار الجيل، بيروت ص٤٥.
(٢) المنطق القديم عرض ونقد ص١١٧.
(٣) مقال عن المنهج ص١١٧.

الأوروبية الوسطىٰ ما هي ألا جدلية لا برهانية. وأنها لا تساوي الاستدلالات الفطرية لأي رجل عاقل[١].

ويقول عنها متهكِّما بها وبمن يشتغل بها أنها: (أمور نظرية ليس لها في الخارج أثر، ولا تكون منها نتيجة، إلا ما قد يدركه من غرور بها علىٰ مقدار بعدها من العقل، بسبب ما بذل من الفكر والحيلة كي يجعلها شبيهة بالحق)[٢].

يقول المعلق علىٰ كتاب ديكارت وأظنه المترجم «محمود الخضيري» عند هذا الموضع: (يهاجم ديكارت طرق التفكير في العصور الوسطىٰ، ويتهكم علىٰ عُقم الجدل الذي كان يقتصر عليه العلماء)[٣].

ويقول ديكارت: (مجادلات المدرسيين تجعل من حفظوها دون شعور منهم أشد لجاجة وعنادًا، وربما كانت العلة الأولىٰ فيما يشتجر الآن بين الناس من شقاق وخصام)[٤]. ويقول: (وما من دليل علىٰ فساد مبادئ أرسطو أقوىٰ من أن نقول بأن الناس قد اتبعوها منذ قرون عديدة، دون أن يحرزوا أي تقدُّم عن طريقها)[٥].

ويقول: (ولما كنت أحدث سنًّا اشتغلت قليلًا بالمنطق من بين أقسام الفلسفة، وهو فن كان يبدو لي أنه لابد أن يمدّ مشروعي بشيء، ولكنني عند امتحانه تبينت أن أقيسته وأكثر تعليماته الأخرىٰ هي أدنىٰ من أن تنفع في أن نشرح للغير ما نعرف من الأمور، لا في تعلم تلك الأمور، بل هي

(١) مقال عن المنهج ص١٢٣.
(٢) مقال عن المنهج ص١١٩.
(٣) حاشية مقال عن المنهج ص١١٩.
(٤) مبادئ الفلسفة ص٤٧.
(٥) مبادئ الفلسفة ص٤٨.

تنفع في أن نتكلم فيما نجهل من غير تمييز، ومع أن ذلك العلم يشتمل في الحقيقة علىٰ تعليمات كثيرة جدًّا صحيحة ومفيدة؛ فإن فيه أيضًا غيرها إما ضارة وإما عديمة النفع، وهي مختلطة بها بحيث يكاد يكون فصلها عنها من المتعسر، مثل استخراج ديانا أو منيرفا[(١)] من قطعة من الرخام لم تنحت بعد)[(٢)].

وهذا تحقير شديد للمنطق اليوناني، وإذا كان هذا شأن المنطق وكان تمييز ما فيه من نفع عن الضار بهذا العسر، كان ضرره أكثر من نفعه بل لا نفع فيه، فهو كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية عن النافع منه: (فإني كنت دائمًا أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد)[(٣)]. فهل أخذ ديكارت كلامه هذا من شيخ الإسلام؟.

وهذا يعني أن الاشتغال به ما فيه إلا ضياع الزمان، وقد كان الاشتغال به سبب لتزندق كثير من الأذكياء وضلال الكثير من الفقهاء فضلًا عن غيرهم، فإنه جرهم إلىٰ تعلم الفلسفة اليونانية والتأثر بها.

وقد شنع ديكارت علىٰ أكبر الفلاسفة اليونان، بأن كلامهم لا يوصل إلىٰ اليقين، إلا أنه وصف أرسطو من بينهم بالكذب علىٰ الجمهور، يقول: (أما أرسطو فكان أقل صراحة -يعني من أفلاطون- ومع أنه تتلمذ علىٰ أفلاطون عشرين سنة، ولم يكن لديه مبادئ أستاذه، فقد غير طريقة عرضها

---

(١) (ديانا هي ابنة جوبيتر كبير الآلهة عند الأغريق والرومان وكانت ملكة الغابات، ومنيرفا وتسمىٰ أيضا بلاس أثينا كانت آلهة الحكمة والفنون) حاشية محمود الخضيري.

(٢) مقال عن المنهج ص١٢٨-١٢٩. بشي يسير من التصرف لإخراج كلامه عن فنون أخرىٰ غير المنطق فقط.

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٩/ ٨٢).

تغييرًا تامًّا، وقدمها علىٰ أنها صحيحه ومؤكدة، ولو أن الأرجح أنها لم تكن قط في تقديره كذلك)[(١)].

وقد وصف أرسطو بالكذب كثير من المؤرخين، بل ثبت ذلك بما لا يدع مجالًا للشك مع تقدم العلوم اليوم في الطبيعة والجيولوجيا والأحياء والطب وغيرها، أنه كان يكذب في كثير من العلوم التي قالها[(٢)].

ويقول ديكارت حاثًّا لمن يريد الاستزادة من المعرفة: (ينبغي أيضًا أن يدرس المنطق، ولا أقصد منطق المدرسيين؛ لأنه علىٰ التدقيق ليس إلا جدلًا يعلم الوسائل لإفهام غيرنا الأشياء التي نعلمها، أو للإدلاء دون حكم بأقوال كثيرة من الأشياء التي لا نعرفها، فهو بذلك يفسد الحكم السليم دون أن ينميه، بل أقصد المنطق الذي يُعلم المرء توجيه عقله لاكتشاف الحقائق التي يجهلها)[(٣)].

وقد ذمَّ ديكارت معظم من تشبع بآراء أرسطو التي كانت سائدة في المدارس في زمنه، يقول: (معظم من أرادوا في هذه القرون الأخيرة أن يكونوا فلاسفة قد تابعوا أرسطو متابعة عمياء .. أما من لم يتابعوه -ومنهم كثير من ذوي العقول الراجحة، فلم يبرأوا من التشبع بآرائه في شبابهم؛ لأنه لا يُعلَّم في المدارس سواها، وقد شغلهم ذلك شغلًا حال دون وصولهم إلىٰ معرفة المبادئ الحقة)[(٤)].

---

(١) مبادئ الفلسفة ص٣٥.

(٢) انظر ذلك بالتفصيل في كتاب «جنايات أرسطو في حق العقل والعلم -مظاهرها، آثارها، أسبابها-»، وكتاب: «نقد فكر الفيلسوف ابن رشد الحفيد، علىٰ ضوء الشرع والعقل والعلم - دراسة نقدية لكشف حقيقة فكر ابن رشد»، كلاهما للأستاذ الدكتور خالد كبير علال.

(٣) مبادئ الفلسفة ص٤٢.

(٤) مبادئ الفلسفة ص٣٧.

ولما رأىٰ ديكارت ارتباط كثير من العلوم بعصره بالفلسفة، أراد تجديدها يقول: (لما لاحظت أن مبادئ تلك العلوم يجب أن تكون مقتبسة كلها من الفلسفة، التي لم أكن وجدت فيها بعد شيئًا يقينيًّا؛ فكرت في أنه يجب علي أن أحاول أولًا أن أقرر في الفلسفة أصولًا يقينية)[١].

وبهذا لا يكون ما يقرره ديكارت فلسفة بالمعنىٰ الاصطلاحي؛ لأن الفلسفة لا توصل إلىٰ شيء يقيني، فهو يريد رفض الفلسفة بحجة إصلاحها، أو أدخل في الفلسفة ما ليس منها.



(١) مقال عن المنهج، ص١٣٥.



المبحث الثاني

بين الغزالي وديكارت

ذكر كثير من الباحثين أن ديكارت سرق أهم أفكاره من أبي حامد الغزالي ولم يشر إلىٰ ذلك. وقد اشتهرت في هذا قصة الدكتور المؤرخ عثمان الكعاك[(١)]؛ ففي المؤتمر العاشر للفكر الاسلامي بعنّابة بالجزائر فجّر الدكتور معلومة أذهلت الحضور؛ إذ أن الدكتور الكعّاك في مساعدة منه للدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة حول تأثير أبي حامد الغزالي علىٰ الفكر الغربي استطاع ولوج مكتبة «رينيه ديكارت» ليجد نسخة من «المنقذ من الضلال» لأبي حامد مترجمة للاتينية بخط ديكارت، وفي إحدىٰ صفحاتها إشارة بالأحمر تحت عبارة الغزالي الشهيرة «الشك أول مراتب اليقين»، وعليها حاشية بخط يد ديكارت بعبارة «تُنقل إلىٰ منهجنا»[(٢)].

وقد أجرىٰ كثير من الباحثين مقارنة بين الكتابين؛ كتاب «مقال في المنهج» لديكارت، وكتاب «المنقذ من الضلال» للغزالي، وقد وأذهلت

---

(١) توفي الدكتور الكعاك بتاريخ ١٩ من رجب ١٣٩٦هـ = ١٥ من يوليو ١٩٧٦م، وهو أحد أعلام تونس المعاصرين في الأدب واللغة والتاريخ، وكان يتقن ٧ لغات حية، وألف ما يقرب من ٤٠ كتابًا، نصفها مطبوع. انظر: الموسوعة التونسية المفتوحة علىٰ الشبكة.

(٢) انظر: «المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت» ص١٢، وانظر: مقال للدكتور عبدالله العليان في جريدة عمان بعنوان «الغزالي وديكارت في فلسفة الذات» http://thaqafat.com/2016/03/30348.

المقارنة -التي أجراها د. محمود حمدي زقزوق في كتابه «المنهج الفلسفي بين ديكارت والغزالي»- الكاتب السويسري «كريستوف فون فولتسوجن» الذي نشر مقالة في ديسمبر ١٩٩٣م، بعنوان «هل كان الغزالي ديكارتيا قبل ديكارت» أشار إلىٰ أن هذا التطابق المدهش بين الأفكار الواردة في الكتابين برهنت علىٰ وجود تطابق أساسي في المنهج الفلسفي لكلا الفيلسوفين. وذكر أن هذه المقارنة قد كشفت عن حقيقة مفادها أن الشك المنهجي الذي يعد عملًا تأسيسيًا حاسمًا في الفكر الغربي، مرتبط بالفلسفة الإسلامية في القرن الحادي عشر[(١)].

وقد أكد ذلك أيضًا د. نجيب محمد البهبيتي في كتابه «المدخل إلىٰ دراسة التاريخ والأدب العربيين»، والدكتور محمود حمدي زقزوق في كتابه «المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت»؛ أكَّدا أن رينيه ديكارت قد سرق من أبي حامد الغزالي وخاصة من كتابه المنقذ من الضلال[(٢)].

وبعد أن أجرىٰ الدكتور البهبيتي المقارنة الدقيقة بين الكتابين، ورأىٰ أنها توصل لليقين بأن ديكارت سرق منهجه الذي غير أوروبا من الغزالي، وبين أنها ليست أول سرقات الأوروبيين، قال: (لا أظن أننا بعد هذا التفصيل في حاجة إلىٰ القول بأن ديكارت قد أغار علىٰ الغزالي غارة لم يرعَ فيها شيئًا، ولم يُقِم اعتبارًا لقيمة أيا كانت هذه القيمة. ولقد قال «دريبر» قولته عن إصرار أوروبا علىٰ إنكار ما أخذت عن العرب، وعدم اعترافها بديونها لهم، وهي الديون التي تثقل ظهورهم، وتغل أعناقهم. وقال ما قال من أن هذا الكذب المفضوح لن يظلَّ خافيًا، وأنه سيأتي اليوم

(١) انظر: «المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت» ص١٢.

(٢) ينظر مقال للدكتور العليان في جريدة عمان: http://thaqafat.com/2016/03/30348 .

الذي يتكشف فيه التاريخ عن الحق. وقد صدق «دريبر» وهذا جانب من جوانب لا تنتهي حصرًا من أخذ أوروبا عن العرب وإنكارها ما أخذت. ولا أظن أن في الدنيا أخزىٰ منه وجها، وأقبح سحنة.

فالرجل الذي تعتبره أوروبا أبا لفلسفتها الجديدة إنما هو مثال ورقي للغزالي الفيلسوف المسلم، يهرول في طيلسانه، ويتعثر في التماس مواقع كعبيه، لا يمضي خطوة واحدة إلا علىٰ أثر خطوة من خطواته)[١].

ويقول الدكتور عبدالله العليان: (ولهذا فان الإمام الغزالي كان السباق إلىٰ طرح منهج الشك إلىٰ اليقين، بما يجعله أول من أسس هذا المنهج وليس الفيلسوف ديكارت الذي يسمىٰ أبو الفلسفة الحديثة)[٢].

ومن يقرأ كتاب «المنقذ من الضلال» للغزالي، ويقرأ «مقال عن المنهج» لديكارت لا يشكُّ في صحة وقوع هذه السرقة، وسأنقل بعض كلام الغزالي في كتابه الذي يبين ذلك، حين مقارنته مع ما سبق نقله عن ديكارت في هذا الكتاب، يقول الغزالي: (وقد كان التعطش إلىٰ درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري، وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله تعالىٰ وضعها في جبلتي لا باختياري وحيلتي. حتىٰ انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت علي العقائد الموروثة علىٰ قرب عهد سن الصبا)[٣].

فلا فرق بين هذا وبين كلام ديكارت السابق.

---

(١) المدخل إلىٰ دراسة التاريخ والأدب العربيين ص٣٢٧-٣٢٨. دار الثقافة، المغرب الطبعة الثانية ١٤٠٤-١٩٨٥.

(٢) مقال الدكتور العليان في جريدة عمان http://thaqafat.com/2016/03/30348 .

(٣) المنقذ من الضلال ص٤٦.

وقال: (فظهر لي: أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقىٰ معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقرير ذلك. بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين، مقارنة لو تحدىٰ بإظهار بطلانه -مثلا- من يقلب الحجر ذهبًا والعصا ثعبانًا، لم يورث ذلك شكًّا وإنكارًا؛ فإني إذا علمت: أن العشرة أكثر من الثلاثة، فلو قال لي قائل: لا بل الثلاثة أكثر، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا، وقلَبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشك بسببه في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه! فأما الشك فيما علمته فلا. ثم علمت أن كل ما لا أعلمه علىٰ هذا الوجه، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به، ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني)[1].

وقال الغزالي: (فأقبلت بجد بليغ، أتأمل المحسوسات والضروريات، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها؟ فانتهىٰ بي طول التشكيك إلىٰ أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضًا، وأخذ يتسع فيها، وتقول: من أين الثقة بالمحسوسات؟ وأقواها حاسة البصر وهي تنظر إلىٰ الظل فتراه واقفًا غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة -بعد ساعة- تعرف أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة بغتة، بل علىٰ التدريج ذرة ذرة، حتىٰ لم يكن له حالة وقوف. وتنظر إلىٰ الكوكب، فتراه صغيرًا في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل علىٰ أنه أكبر من الأرض في المقدار. هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه،

(١) المنقذ من الضلال ص٤٧.

ويكذبه حاكم العقل والتجربة تكذيبا لا سبيل إلىٰ مدافعته فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا)[١].

فترىٰ إنكار الحس أيضًا والأمثلة عينها التي استدل بها ديكارت.

ثم أورد الغزالي إيرادًا علىٰ هذا الدليل العقلي في إنكار المحسوس، وتوقف عنده قليلًا، قال: (فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلا وأيدت إشكالها بالمنام، وقالت: أما تراك تعتقد في النوم أمورًا، وتتخيل أحوالًا، وتعتقد لها ثباتا واستقرارًا، ولا تشك في تلك الحالة فيها، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل؟.

فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلىٰ حالتك التي أنت فيها؟ لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلىٰ يقظتك، كنسبة يقظتك إلىٰ منامك، وتكون يقظتك نوما بالإضافة إليها؛ فإذا وردت تلك الحالة، تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا الحاصل لها)[٢].

وهذين الدليلين هما ما استدل به ديكارت في إنكار المحسوس، كما سبق، وبنفس الأسلوب والأمثلة مع تعديل يسير جدًا.

وأما النور الفطري الذي يلجأ إليه ديكارت، فهو من قول الغزالي: (فأعضل الداء، ودام قريبا من شهرين، أنا فيهما علىٰ مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال. حتىٰ شفىٰ الله تعالىٰ من ذلك المرض والاعتلال، وعادت النفس إلىٰ الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقًا بها علىٰ أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم

(١) المنقذ من الضلال ص٤٨-٤٩.

(٢) المنقذ من الضلال ص٥٠.

دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالىٰ في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف علىٰ الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالىٰ الواسعة)(١).

فذكر النور المقذوف في القلب، وذكر رحمة الله الواسعة، وهو استدلال ديكارت برحمة الله، وهو أصل استدلال ديكارت في كثير من كلامه ومن ذلك قوله: (مما يتنزه الله واسع الكرم والرحمة أن يكون قد خلقني عرضة لضلال مقيم)(٢)، ويقول: (هذا الإله لا يمكن أن يكون مضلًا لأنه كامل)(٣).

وهو من قول الغزالي: (والنظر العقلي لا يوثق به عندك، ولا يعرف دلالة المعجزة علىٰ الصدق ما لم يعرف السحر والتمييز بينه وبين المعجزة، وما لم يعرف أن الله لا يضل عباده)(٤). فهذه مقارنة تثبت سرقة من ديكارت منهجه «الشك المنهجي» من الغزالي، وهي سرقة بلا بصيرة؛ لأنه قلَّد الغزالي حتىٰ في الشك في المحسوس.

---

(١) المنقذ من الضلال ص٥٢.
(٢) التأملات ص١٧٧-١٧٨.
(٣) التأملات ص١٢٩. وقد أفردت لـ «موقف ديكارت من القضاء والقدر» بحثًا مستقلا يسر الله إتمامه.
(٤) المنقذ من الضلال ص٨٧.

خاتمة الباب

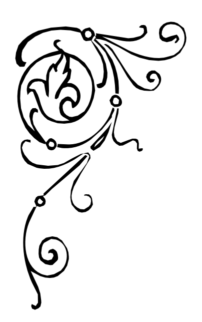
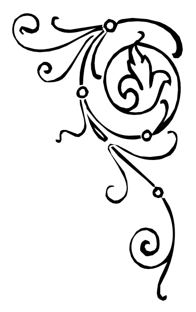
١- تبين من هذا الباب أن طريقة ديكارت في البحث عن الحقيقة لا توصله إلا لبعض الحقائق القليلة، فهي قاصرة وغير كافية، مع عدم جدواها في إثبات حقائق مثلها أو أهم منها. لذلك لم يؤمن بحقائق كثيرة. إلا أن منهجه نفع في بيئته تلك نفعا كبيرًا بسبب ما لحقها من انحرافات عن بدهيات العقول وأدلة الفطر كبيرة.

٢- كبار مفكري الغرب الذين سرقوا علومهم الصحيحة من المسلمين لم ينصفوا الإسلام، ولم يبينوا حقيقة تقدمهم للناس، وقد وقعوا في أكبر سرقة في التاريخ.

٣- تقدم أوروبا المادي المذهل هو من أثر الوحي المنزل علىٰ محمد ﷺ، فليعلم المنبهرون بالغرب، والداعون لرفض الدين أن الدين الإسلامي والتقدم في العلم الشرعي هو سبب التقدم المادي، والعكس بالعكس.

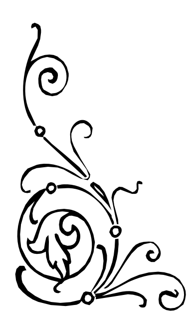
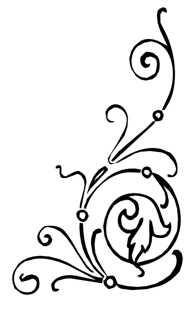
٤- إذا ثبتت سرقة ديكارت من الغزالي، وقد ثبتت سرقات غيره من كبار المفكرين والعلماء الأوروبيين لعلوم المسلمين، فهو وأمثاله إذا من أعرف الناس بحاجتهم لعلماء وكتب علماء المسلمين، وقيمتهم، وأثرهم علىٰ أوروبا، وحاجة أوروبا والغرب لهم، فكتمهم هذا الحق من الحياد الكبير عن الأمانة والإنصاف، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فيجب كشف ذلك للناس، ودعوتهم للدين الحق.



الباب الثاني

موقف ديكارت من الدين



التمهيد

حاجة الخلق للدين فوق كل حاجة، ولا صلاح لهم إلا به، والدين وإلاهياته خاصة، لا طريق لليقين فيه إلا عن طريق الأنبياء ﷺ؛ لأنه غيب، والعقل لا يمكنه أن يستقل بمعرفة الغيب مفصلًا، لذلك اعترف أساطين الفلاسفة كأفلاطون(١) وغيره أنَّ عقول البشر لا توصلهم فيه إلىٰ اليقين. والدين الحق غير المحرف يستحيل أن يعارضه العقل السليم، أو الحس والحقيقة العلمية، أو الفطرة، وإن كان الدين قد يأتي بما يحار فيه العقل، ولكنه لا يأتي بما يحيله العقل.

والعقل مفتقر إلىٰ الدين، وهكذا كان العقل مع الدين إلا أن الكنيسة بسبب تحريفها للدين؛ سببت نفور العقل، والصراع الكبير معه؛ فأصبح العقل والعلم المادي يناقضان الدين، ثم غلب العقل علىٰ الدين المحرَّف، وانتشر الإلحاد، ولم يطرأ علىٰ العقل الغربي أن ما في الكنيسة دين محرَّفٌ، وأن الباطل الذي فيها ليس من عند الله.

وديكارت كان متدينًا فعرض موقفه من الدين وتعظيمه له وردوده العظيمة علىٰ الملحدين، مهم في ضوء الإلحاد العارم الذي طغىٰ علىٰ فلاسفة أوروبا. ونبين في هذا الباب إن شاء الله كيف انعكس إيمانه بالدين إلىٰ العلمانية والإلحاد في أوروبا بعده.

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون ص٥٣٥.



الفصل الأول

الموقف من الله تعالى ووجوده في فلسفة ديكارت

جعل ديكارت اليقين في وجود الله أعظم من أعظم يقين في الوجود، هندسيًّا أو غيره، وفي هذا القول دمغٌ للملحدين؛ يقول ديكارت عن حجج وبراهين وجود الله تعالىٰ أنها: (تعادل بل تفوق في اليقين والبداهة براهين الهندسة)[1]، ويقول: (أعتقد أن النفس الإنسانية لا تستطيع أن تعرف ببداهة ويقين أكثر مما تعرف وجود الله)[2].

وكأنه يقول، وكما قال المتني:

وليس يصحُّ في الأذهان شيءٌ ... إذا احتاج النهارُ إلىٰ دليلٍ

بل يرىٰ أن أدلة وجود الله تعالىٰ أبلغ من وجود النهار، وكلامه إلىٰ هنا كلام صحيح لا شك فيه، وقد قال تعالىٰ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

ويقول: (الفكرة التي لديَّ عن الله أصحُّ ما بذهني من أفكار وأكثرها وضوحًا وتميُّزًا)[3]. ويقول عن أدلة وجود الله تعالىٰ، وأدلة وجود النفس أنها: (أوثقُ وأبينُ ما يمكن أن يقع للذهن الإنساني من معرفة)[4].

---

(١) التأملات في الفلسفة الأولىٰ ص٤٤.
(٢) التأملات في الفلسفة الأولىٰ ص١٧٨، ٢٠٦.
(٣) التأملات في الفلسفة الأولىٰ ص١٥٥.
(٤) التأملات في الفلسفة الأولىٰ ص٦٠.

ويقول: (كون الله الذي هو هذا الموجود الكامل، موجودًا هو علىٰ الأقل مساوٍ في اليقين لخير ما يمكن أن يكون برهانًا هندسيًا)[(١)].

وذلك لأنه يرىٰ استحالة موصوف له كل الكمالات وهو غير موجود؛ لأن هذا تناقض ظاهر. فقد جعل ديكارت من الدليل علىٰ وجود الله الخطوة الأولىٰ والأساسية لعلم الطبيعة.

وجعل أيضًا وجود الله تعالىٰ وكماله أساس كل يقين، ومصدر العلم الأسمىٰ، وهذا مما عد من تفرُّدات ديكارت في الغرب، فهو بخلاف كل الفلسفات التي كانت قبله، والتي كانت تجعل الطبيعيات سابقة علىٰ الميتافيزيقا[(٢)].

بل لم يبق لديكارت في منهجه دليل لليقين بشيء إلا إثبات الكمال لله تعالىٰ، وهو ما يسمىٰ في منهجه بـ «السند الإلهي لصحة الحقائق التي نتخيلها»؛ وذلك أنه شكَّ في كل شيء، حتىٰ في التفريق بين المنام واليقظة؛ وذلك لأن الإنسان عنده يَرىٰ في المنام أشياء كأنها حقيقة، فيرىٰ ديكارت أنه لا مانع أن يكون ما يراه في اليقظة هو مجرد منام فقط[(٣)]. ويرىٰ أن الله قادر أن يضلَّه في هذا؛ لكن يرىٰ أن الله تعالىٰ له كل الكمالات فيستحيل عليه أن يخدعنا. فاستحالة وصف الله بالخداع عند ديكارت هو دليل صحة الحقائق، يقول: (هذا الإله لا يمكن أن يكون مضلًّا؛ لأنه كامل)[(٤)]. فسند اليقين عند ديكارت هو وجود الله وكونه غير مُضِلّ.

---

(١) مقال عن المنهج، ص١٦٠.
(٢) انظر: علاقة العقل بالدين عند ديكارت ص٣٤.
(٣) انظر: مقال عن المنهج، ص١٤٩، التأملات في الفلسفة الأولىٰ، ص٦٦.
(٤) التأملات ص١٢٩.

ويقول: (من المحال أن يضلَّني الله؛ إذ أنَّ في الخداع أو الغش نقصًا، ولئن يكن يبدو أن استطاعة المخادعة من علائم البراعة والقوة؛ فلا جرَم أن تعمُّد المخادعة دليل علىٰ الضعف أو علىٰ الخبث، وهما أمران لا يمكن أن يوجدا في الله)[١] [٢].

فالمقصود أن ديكارت جعل كمال الله تعالىٰ، وعدم مخادعته هو أساس اليقين في كل علومه البشرية.

ويقول: (مما يتنزَّه الله واسع الكرم والرحمة عنه: أن يكون قد خلقني عرضة لضلالٍ مقيم)[٣]، فثقة ديكارت في الله وحسن ظنه به هو ما بقي له من أدلة ينطلق منها لليقين، فجعل الله تعالىٰ (هو المصدر الأعلىٰ للحقيقة)[٤]، و(منبع كل حقيقة)[٥]. ويقول: (وجود الله ليس يقينا فحسب، بل من الحق أن يقال: إن كل يقين إنما يعتمد عليه)[٦]. ويقول: (أنا أتبيَّنُ تبينًا واضحًا جدًا أن يقين كل علم وحقيقته يعتمدان علىٰ معرفة الله الحق وحدها)[٧]. ويقول أيضًا: (وضح لي كلَّ الوضوح أن يقين كل علم وحقيقته إنما يعتمدان علىٰ معرفتنا للإله الحق؛ بحيث يصح لي أن أقول: إني قبل أن أعرف الله ما كان بوسعي أن أعرف شيئًا)[٨].

---

(١) التأملات في الفلسفة الأولىٰ ص١٧٨.
(٢) سيأتي الكلام عن موقفه من القضاء والقدر مفصلا إن شاء الله تعالىٰ.
(٣) التأملات ص٧٧.
(٤) التأملات ص٨٠، وانظر: مبادئ الفلسفة ص٣٩.
(٥) مبادئ الفلسفة ص٣٩.
(٦) التأملات في الفلسفة الأولىٰ ص٢٠٧.
(٧) التأملات في الفلسفة الأولىٰ ص٢٠٧.
(٨) التأملات، ص٢٢١.

فالله ﷻ عنده هو أساس كل وجود، وأساس كل يقين، يقول: (يقين البراهين الهندسية نفسه متوقِّف علىٰ معرفتنا بالله)[(١)]. ويقول: (من جهِل الله، فلن يستطيع أن يعرف شيئا آخر معرفة يقينية)[(٢)].

ويثني الباحث «نظمي لوقا» علىٰ موقف ديكارت هذا من وجود الله تعالىٰ فيقول: (إنه يجعل من معرفة الله أساسًا لمعرفة العالم، وأساسًا للحق والخير إطلاقًا، ومحورًا للفضيلة، ثم قطبًا تتجه إليه النفس، مجنَّدة كل عناصرها ومدربة علىٰ الائتمار والطاعة، بدافع من حبها وعرفانها لمصدر الوجود، وواهب المعرفة، وباري الخير بإرادته الكاملة.

وإنه ليحتمي في الله من الشكِّ، كما يحتمي من تمرُّد الوثني الذي ينكر العجز، ويسخر بالخير والشر جميعًا، كما يحتمي من تسليم الرواقي الذي إن هو إلا ثورة مقلوبة، وسخط تخفيه الكبرياء)[(٣)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وهذا بخلاف العلم الأعلىٰ عند المسلمين، فإنه العلم بالله الذي هو في نفسه أعلىٰ من غيره من كلِّ وجه، والعلم به أعلىٰ العلوم من كلِّ وجه، والعلم به أصل لكل علم، وهم يسلّمون [أي المنطقيين] أن العلم به إذا حصل علىٰ الوجه التام يستلزم العلم بكل موجود)[(٤)].

ومع هذا؛ إلا أن منهج ديكارت هنا يلاحظ عليه ملاحظات؛ منها:

الأولىٰ: أن الله تعالىٰ جعل هناك طرقًا للوصول إلىٰ الحقائق الأخرىٰ

---

(١) التأملات ص٥٩. وانظر منه ص٢١٨.

(٢) مبادئ الفلسفة ص٥٩.

(٣) «الله أساس المعرفة والأخلاق عند ديكارت» ص١٨٥.

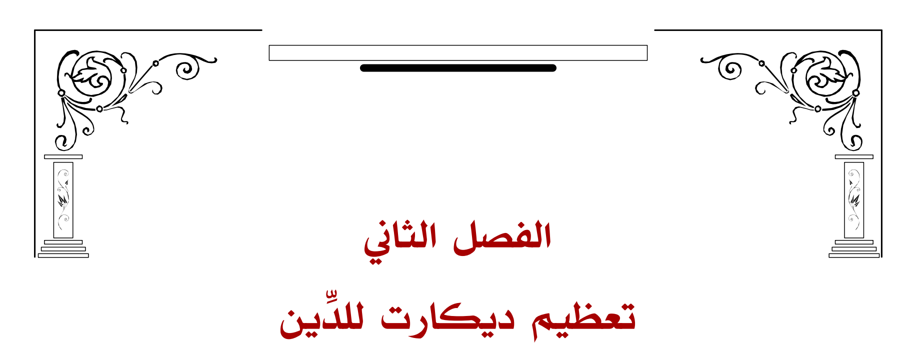
(٤) الرد علىٰ المنطقيين ص٣٠٧ ط. الهندية، ص١٧٣ طبعة عبد الصمد الكتبي.

غير الميتافيزيقية، كأدلة الحس -ومنها التجربة والملاحظة والاستقراء- علىٰ المحسوسات، بل وبعض الغيبيات، وأدلة المتواترات، وكذا الأدلة العقلية القطعية. أو الرياضية، فلو كان المتأمل فيها ملحدًا، لا يقر بوجود الله تعالىٰ لأمكن أن يصل فيها إلىٰ يقين. فطرق المعرفة ليست محصورة فيما اعتقده ديكارت وإن كان توفيق الله تعالىٰ هو سبب كل معرفة صحيحة.

الثانية: أن ديكارت قد حجَّر واسعًا؛ فلازم مذهبه وصف الله بأنه أضلَّ الخلق فيما يتعلق بالمحسوس، فإن ديكارت ينكر المحسوسات كما سبق.

فعلىٰ مذهبه يكون الله -تعالىٰ عن ذلك- شكك الخلق في المحسوسات، وفي كثير من الغيبيات، فلم يبق عنده يقين إلا في وجود الله ووجود النفس، والله تعالىٰ منزه عن ظلم أحد، فإنه تعالىٰ خلق الخلق ورزقهم وجعل لهم الأسماع والأبصار والعقول، بل أرسل لهم الرسل وأنزل الكتب، إضافة إلىٰ ذلك، وبين طريق الحق من الباطل بأدلة يقينية لا تحتمل أدنىٰ شك، والحمد لله رب العالمين.





الفصل الثاني

تعظيم ديكارت للدِّين

وسبب أثره العكسي على أوروبا

كان ديكارت يعظم الدين -النصراني-، وقد سبق ذكر شيء حول ذلك في ترجمته، ومما قاله في ذلك: (وكنت أُجلُّ علومنا الدينية، وأطمع كغيري في الجنة؛ لكن لما علمت علمًا مؤكدًا أن الطريق إليها ليس ممهَّدًا لأجْلِ الجهلاء أقل مما هو ممهَّد لأعلم العلماء، وأن الحقائق الموحىٰ بها والتي تهدي إلىٰ الجنة هي فوق فهمنا؛ لم يكن لي أن أجرؤ علىٰ أن أسلِمها لضعف استدلالاتي، ورأيت أن محاولة امتحانها امتحانًا موفقًا تحتاج لأن يُمدَّ الإنسان من السماء بمددٍ غير عادي، وأن يكون فوق مرتبة البشر)[١].

ويقول: (هذه الأمم لا تكون حاصلة علىٰ نظام يبلغ من الأحكام مبلغ ما عند الأمم التي منذ بدأ اجتماعها، قد اتبعت شرائع مشرِّع حكيم، كذلك يكون جد يقين أن هيكل الدين الصحيح، الذي شرع الله وحدَه أحكامه، يجب أن يكون خيرًا في النظام من كل ما عداه، إلىٰ الحد الذي لا يبارىٰ)[٢].

(١) مقال عن المنهج ص١١٧.

(٢) مقال عن المنهج ص١٢٢.

وكان يوصي بقضية الدين، يقول: (لن يجمُل بي في هذا المقام أن أطيل الكلام في التوصية بقضية الله، وقضية الدين لدىٰ من كانوا دائمًا أمتن دعائمها)[(١)].

وهو متمسك بالدين الذي نشأ عليه، يقول: (حقائق الإيمان لها دائما المنزلة الأولىٰ في اعتقادي)[(٢)]، ونوىٰ من بداية تأسيس منهجه[(٣)] كما يقول: (المحافظة علىٰ الديانة التي أنعم الله بها عليَّ؛ بأن نشأت فيها منذ طفولتي)[(٤)].

ويقول مقرِّرا عقيدته -النصرانية-: (يجب علينا أن نؤمن بكل ما أنزله الله، وإن يكن فوق متناول مداركنا؛ فإذا أنعم الله علينا بما كشفه لنا أو لغيرنا من أشياء تُجاوز طاقة عقولنا في مستواها العادي، كأسرار التجسُّد والتثليث، لم يستعصِ علينا الإيمان بها مع أننا قد لا نفهمها فهمًا واضحا؛ ذلك لأنه لا ينبغي أن يقع لدينا موقع الغرابة أن يكون في طبيعة الله، وفي أعماله أشياء كثيرة تُجاوز متناول أذهاننا)[(٥)].

وقد صرح بإبعاد العقل فيما يتعلق بالعقيدة؛ يقول: (ننأىٰ بأنفسنا دائمًا عن الخوض في المجالات التي تدور حول اللامتناهي. إن مما لا يقبله العقل أن نتصدىٰ له ونحن متناهون، لتحديد شيء عنه، وكأننا بهذا نفترضه متناهيا)[(٦)].

---

(١) التأملات في الفلسفة الأولىٰ ص٤٦.
(٢) مقال عن المنهج، ص١٤٤.
(٣) مقال عن المنهج، ص١٣٧.
(٤) مقال عن المنهج، ص١٣٨.
(٥) مبادئ الفلسفة ص٦٨.
(٦) مبادئ الفلسفة ص٦٨.

ويقول: (ينبغي أن نفضل الأحكام الإلهية علىٰ استدلالاتنا، ولكن فيما عدا الأشياء المنزلة ينبغي ألا نعتقد شيئا لم ندركه إدراكًا واضحًا جدًّا؛ ينبغي قبل كل شيء أن نستمسك بقاعدة تعصمنا من الزلل؛ وهي أن ما أنزله الله هو اليقين الذي لا يعدله يقين أي شيء آخر. فإذا بدا أن ومضة من ومضات العقل تشير إلينا بشيء يخالف ذلك، وجب أن نُخضع حكمنا لما يجيء من عند الله. أما الحقائق التي لم يرد عنها شيء في التنزيل فليس مما يتفق مع طبع الفيلسوف أن يسلِّم بصحة شيء لم يتحقق منه، ولا أن يركن إلىٰ الثقة بالحواس، أي: أن يكون اطمئنانه إلىٰ ما تلقاه في طفولته من أحكام هو جاء أكثر من اطمئنانه لما يقتضي به العقل الناضج)[1].

ففرَّق بين اللاإلهيات، وبين غيرها، فلم يُخضع الإلهيات لمنهجه العقلي، ويلاحظ أنه خلط الحق بالباطل، فالذي لا يجوز للعقل الخوض فيه في جانب من لا أول له ولا آخر -وهو ما يسميه ألّلامتناهي- هو كيفية صفاته تعالىٰ وكيفية أفعاله، وتعليل شرائعه تعالىٰ الغير معقولة المعنىٰ، فلا يجوز إنكار ما يأتي منه تعالىٰ إذا صح ذلك ولو حار فيه العقل. لكن الدين الحق يستحيل أن يأتي بما يحيله العقل، وما يقطع العقل السليم ببطلانه، كما وقع فيه ديكارت كاعتقاده التجسد والتثليث، وغيرهما من العقائد النصرانية الباطلة. وهو يدل علىٰ أن تمسكه بهذه العقيدة إنما هو تعصب وتقليد أعمىٰ، وإلا فإن الحق من أي مصدر جاء لا يمكن أن يعارض حقًّا جاء من مصدر آخر، فصريح المعقول يوافق دائما صحيح المنقول، والحقيقة العلمية لا تعارض أيضًا صحيح منقول ولا صريح

(١) مبادئ الفلسفة ص١٠٠.

معقول، وكذا والفطرة، وهذه لم يهتد بها إلا من آمن بمحمد ﷺ، فسلم من التناقض وازدواجية المعرفة والشك والحيرة والقلق والعبودية للخلق والحمد لله. لكن المقصود أن العقيدة النصرانية تعارض العقل السليم في كثير من عقائدها.

وقد استُنكر علىٰ ديكارت إدخال مثل هذه المسألة في كتاب فلسفي؛ يقول د. عثمان أمين: (ربما بدت هذه التصريحات الديكارتية عن أسرار العقيدة المسيحية مجاوزة بعض الشيء لما ينبغي في كتاب فلسفي وعلمي، يحاول صاحبه أن يبين أن كل ما في العالم يستطاع تفسيره، دون أسرار عن طريق القوانين الطبيعية. ولكن ديكارت كان شديد الفزع من رقابة الكنيسة وغضبها)[١].

إذًا العقائد الباطلة التي يؤمن بها ديكارت تعارضت مع منهجه العقلي، فأخرجها عن ذلك، وليس سببه في نظري هو «الشك المنهجي» الذي انتهجه، ولا عدم إخلاصه للكنيسة، لئلا يظن التناقض -بين كونه يعظم الدين، وبين كون منهجه سبب العلمانية والإلحاد- لكنه بسبب ما في الكنيسة من انحراف وتناقض، ومناقضة للعقل السليم القطعي، بسبب ما أدخل فيها من الخرافة. فلم يفرِّق ديكارت بين قبول ما يحار فيه العقل، وبين ما يحيله العقل من الدين المحرف؛ لأنه تَبيَّن أن طرْد منهجه الشكي العقلي، سيجعله يكفر بدينه النصراني بسبب ما فيه مما يناقض العقل كما سبق. لذلك رأىٰ كثير من المفكرين الغربيين أن مذهب ديكارت هو سبب الإلحاد في أوروبا، وأنه رائد للتنويريين وللثورة الفرنسية؛ لأنهم طردوا منهجه العقلي وآمنوا به فرأوا أن بعض عقائدهم تناقض ذلك.

---

(١) حاشية مبادئ الفلسفة ص٦٨.

فقرر جون لويس أنَّ ديكارت أحلَّ البحث الحرَّ محل الخضوع للسلطة، والبرهنة العقلية محل الإيمان، وهو بذلك مؤسس فلسفة التنوير. وقال بسكال في «خواطره»: (لا أستطيع أن أغفر لديكارت، فقد كان بوده، في مجمل فلسفته، لو أنه استغنىٰ عن الله، ولكنه لم يتمالك من أن يعترف له بضربة من اصبعه ليحرك الكون، وبعد ذلك صرف النظر عنه)[١]، لذلك تطورت الديكارتية حتىٰ أصبحت كما تنبأ «بوسوبه» وكما قال «كراكيولي»: (أخطر أعداء المسيحية)[٢].

ويقول الدكتور أحمد السيد رمضان: (فكان من آثار الروح الديكارتية أن انطلقت الأذهان من عقالها، وأرادت أن تخضع للفحص والنقد كل شيء، وطالبت بتوخي البداهة حتىٰ في الأمور التي لم تكن تتطاول إليها العقول؛ واستعملها أهل الجرأة من المفكرين سلاحًا لتقويض أسس الاعتقاد والإيمان)[٣].

وإذا علمنا أن العقل السليم لا يعارض النقل الصحيح، بل يحتج له ويؤيده، علمنا أنه لا خطر علىٰ الدين الحق من التفكير السليم. لذلك يقول الشيخ مصطفىٰ صبري: (فظنَّ مقلدوا الغرب منَّا -الذين تعلموا الدين أيضًا رغم كونهم مسلمين- أن منهج «ديكارت» أضرَّ بدينهم كما أضرَّ بالنصرانية، وهم مخطئون في فهم موقف دينهم، وفي فهم حقيقة هذه الفلسفة. ففي خطأهم الأول أساءوا الظن بالإسلام، وفي خطأهم الثاني أساءوا الظنَّ بالعقل، واتبعوا فلسفة القرون الوسطىٰ المتأثرة من المسيحية)[٤].

---

(١) خواطر بليز باسكال ص٣٤.
(٢) انظر النقول السابقة: الفلسفة الحديثة عرض ونقد ص١٥٢-١٥٣.
(٣) الفلسفة الحديثة عرض ونقد ص١٥٣.
(٤) موقف العقل والعلم (١/ ٢١٥).

بل القرآن دعا إلىٰ البحث عن التناقض، وتحدىٰ أن يوجد ذلك فيه، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، قال ابن كثير: (أي اضطرابًا وتضادًّا، وهذا سالم من الاختلاف)، ودعا القرآن إلىٰ التأمل والتدبر بالعقول فيه، قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

فكلما تأمل العقل السليم في القرآن عرف أنه الحق وأنه كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].





الفصل الثالث

أدلة وجود الله عند ديكارت

من أكبر القضايا التي أشغلت الفلاسفة من قديم هي أدلة وجود الله، ولا شك أن العقول السليمة، والفطرة، والحِسَّ كلها أدلة علىٰ وجود الله تعالىٰ، بل أدلة وجود الله تعالىٰ هي أوضح الأدلة البدهية الظاهرة. فالفلاسفة إذًا أشغلوا أنفسهم بأمر بدهي، إلا أن بعض هذه الأدلة قد يحتاجها من فسدت فطرته[(١)].

وقد أبدىٰ ديكارت أدلَّة صحيحة في ذلك، ومن مقاصد هذا الكتاب إبرازها، ويرىٰ أنه يجب أن يبرهن علىٰ وجود الله بالعقل وهو العقل الاستدلالي البرهاني؛ يقول: (لقد كان رأيي دائمًا أن مسألتي الله والنفس أهم المسائل التي تبرهن بأدلة الفلسفة خيرًا مما تبرهن بأدلة اللاهوت؛ ذلك وإن كان يكفينا نحن معاشر المؤمنين أن نعتقد بطريق الإيمان بأن هناك إلها .. فيبقىٰ أنه لا يبدو في الإمكان أن تقدر علىٰ إقناع الكافرين بحقيقة دين من الأديان، بل وربما بفضيلة من الفضائل الأخلاقية إن لم نثبت لهم أولًا هذين الأمرين بالعقل الطبيعي)[(٢)].

(١) انظر: «أدلة الفلاسفة علىٰ وجود الله–دراسة نقدية–»، للدكتور عبدالكريم نوفل عبيدات، مجلة جامعة دمشق (المجلد التاسع، العدد الأول–٢٠٠٣).
(٢) التأملات في الفلسفة الأولىٰ ص٣٩.

ومع حاجة كثير من الخلق للأدلة العقلية الصحيحة، إلا أن في كلام ديكارت هذا ملاحظة خطيرة، وهي الظنَّ أن أدلة الوحي ليس فيها حجج عقلية، وهذا سببه ضعف أدلة وجود الله والرد علىٰ الملاحدة في كتب النصارىٰ المقدسة عندهم، لذلك لم يجدها ديكارت كافية لإقناع الملاحدة؛ لذلك يرىٰ أن الأدلة التي جاءت بها الكنيسة لا يصلح عرضها علىٰ الملاحدة؛ لأنها تُشعرهم بوقوع الغلط وهو وقوع الدور الممتنع(١)، وهذا سببه تحريف كتب الله الذي فعله رجال الدين، واعتمادهم علىٰ الفلسفة.

والحق أن الأنبياء عليهم السلام جاءوا بالأدلة النقلية والعقلية، وبما لا يستطيعه البشر من ذلك، وفي القرآن من ذلك ما لم يأت به نبي قبل نبينا محمد ﷺ، ولم يَنزل به كتاب، وأصح الأدلة العقلية التي جاء بها الخلق وغيرهم لإثبات وجود الله موجودة في القرآن بأيسر الطرق. ولو أن ديكارت هداه الله وقرأ القرآن(٢) وكان متجرِّدًا لعرف من الحقائق، ومن أدلة العقول

(١) انظر: التأملات في الفلسفة الأولىٰ ص٤٠.

(٢) بلوغ الاسلام لديكارت لا شك فيه، ومما يبين ذلك قوله عن المنطق الأرسطي: (أن أقيسته وأكثر تعليماته الأخرىٰ هي أدنىٰ من أن تنفع في أن نشرح للغير ما نعرف من الأمور، لا في تعلم تلك الأمور بل هي كفَنِّ «لُلْ»، ينفع في أن نتكلم فيما نجهل من غير تمييز) مقال عن المنهج ص٢٨، يقول المحقق مترجمًا لـ (لل) الوارد في كلام ديكارت هذا: (هو رايموند لل، العالم الفيلسوف الكيماوي الرحالة المبشر، وهو من أعجب شخصيات العصور الوسطىٰ، ولد في بالما سنة١٢٣٥، ومات مرجومًا في ١٣١٥. وقد تعلم علوم العرب، لغتهم في الأندلس كي يدعو المسلمين إلىٰ المسيحية، ويظهر أن جرأته وحماسه الفائقين كانتا تشفعان له في غض أمراء المسلمين عنه والتسامح معه. وله مؤلفات كثيرة جدا، يقول البعض أنها تبلغ أربعة آلاف كتاب) ف(لل) هذا من أشهر ما نقل في ترجمته دعوة المسلمين إلىٰ النصرانية، وكان ديكارت يعرف ترجمته جيدا، لما وصفه به من وصف في كلامه السابق. وكذا ثبت وجود نسخة من كتاب الغزالي (المنقذ من الضلال) باللغة اللاتينية في مكتبة ديكارت، وعليه =

ما يكفيه ويشفيه، ولو عرف ذلك علماء الغرب لخرجوا مما هم فيه من التِّيه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن وجد من هذه الأمة محتاجًا إلىٰ شيء غير ما جاء به الرسول، فلضعف معرفته واتباعه لما جاء به الرسول، مثل كثير منهم من يقول: إنهم محتاجون إلىٰ حكمة فارس والروم والهند واليونان وغيرهم من الأمم .. ولا تجد من يقول إنه محتاج إلىٰ غير آثار الرسول إلا من هو ضعيف المعرفة والاتباع لآثاره، وإلا فمن قام بما جاء به الكتاب والسنة: أشرف علىٰ علم الأولين والآخرين وأغناه الله بالنور الذي بعث به محمدًا عما سواه.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل

= تعليق بخط ديكارت. انظر: وانظر: «المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت» ص١٢، المدخل إلىٰ دراسة التاريخ والأدب العربيين ص٣٢٧-٣٢٨. ثم إن جهل العلم بالإسلام في فرنسا في ذلك الوقت علىٰ أمثال ديكارت بعيدٌ جدًّا، خاصة إذا علم أن فرنسا منا تنطلق طليعة الحروب الصليبية منذ العصور الوسطىٰ. ثم إن فرنسا جارة للأندلس فهم أعرف من غيرهم بحضارة المسلمين هناك، بل كانت أولىٰ الغزوات الإسلامية لفرنسا كانت سنة ٩٦هـ في أيام طارق بن زياد، وعدد المسلمين في فرنسا أيام «ديكارت» بالملايين. يرجع إلىٰ كتب تاريخ الإسلام في الأندلس وغيرها.

لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨-٢٩])[1].

ويقول مبينًا اشتمال الوحي علىٰ الأدلة العقلية علىٰ مسائل الإلهيات: (ما عليه سلف الأمة أهل العلم والإيمان؛ من أن الله ﷻ بين من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في ذلك العلم ما لا يقدر أحد من هؤلاء قدره، ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بخلاصته علي أحسن وجه، وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله في كتابه التي قال فيها: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ [الزمر: ٢٧]؛ فإن الأمثال المضروبة هي الأقيسة العقلية، سواء كانت قياس شمول أو قياس تمثيل، ويدخل في ذلك ما يسمونه براهين، وهو القياس الشمولي المؤلف من المقدمات اليقينية)[2].

ويُسفِّه ديكارت طريقة فلاسفة العصور الوسطىٰ، وكونهم يستصعبون الأدلة العقلية التي بهذا الشأن علىٰ وجود الله بسبب أنهم كما يقول: (لا يرفعون عقولهم قط إلىٰ ما فوق الأشياء المحسوسة، وأنهم تعودوا ألا يعتبروا شيئا من الاشياء إلا إذا تخيلوا؛ وهذه طريقة في التفكير خاصة بالأشياء المادية)[3].

وقد جعل ديكارت من أهم وظائفه الرد علىٰ من أنكر وجود الله، يقول عن هدفه في تأليف كتابه (التأملات) أنه إجابة دعوة الكنيسة في إظهار أقصىٰ ما تملكه العقول في الرد علىٰ منكري تميز النفس عن البدن، وبقائها

(١) الصفدية (١/ ٢٦٠-٢٦١).
(٢) درء التعارض (١/ ٢٨).
(٣) مقال عن المنهج، ص١٦١.

بعد فناء الجسد، وجعله أيضا رد علىٰ منكري وجود الله[١]. ويقول في «المقال»: (ليس خطأ بعد خطأ الجاحدين لله، وهو خطأ أعتقد أنني دحضته دحضًا كافيًا)[٢]. لذلك ذكر أدلة كثيرة علىٰ وجود الله تعالىٰ، ويرىٰ (أن أغلب الحجج التي أوردها كثير من فطاحل المفكرين في هاتين المسألتين، هي في مرتبة البراهين إذا فهمت علىٰ الوجه الصحيح، وأنه يكاد يكون من المستحيل إيجاد حجج جديدة). لكنه يسعىٰ للبحث عن أحسن هذه الحجج وعرضها في ترتيب واضح متين؛ ليظهر للناس أنها براهين صحيحة[٣].

فقد سُبق إلىٰ أدلته علىٰ وجود الله تعالىٰ كما نبه علىٰ ذلك، لكنه عرضها بأسلوب آخر مغاير لأساليب من سبقه، يقول مهدي فضل الله: (يستخدم ديكارت للبرهنة علىٰ وجود الله منهجًا مغايرًا لكل مناهج الفلاسفة السابقين عليه؛ كان الفكر الفلسفي قبل ديكارت يحاول إثبات وجود الله عن طريق إثبات وجود العالم الخارجي أولًا، والاستناد عليه. أما ديكارت، فإنه بعدما أثبت وجود أنيّته، بأنه كائن أو جوهر مفكر؛ ووجد في نفسه أفكارًا فطرية لا مجال للشك فيه، منها فكرة «الكامل اللامتناهي»، سلك مسلكًا مغايرًا لكل الفلاسفة القدامىٰ، وقام يثبت وجود الله عن طريق براهين ثلاثة كل منها كاف بحد ذاته للاستدلال علىٰ وجود الله)[٤].

وذكر هنا مهدي فضل الله وغيره أنها ثلاثة براهين، لكن بقراءة كلام ديكارت من سائر كتبه يظهر أنها أكثر من ذلك كما سأذكر هنا بإذن الله.

(١) التأملات ص٥٨.
(٢) مقال عن المنهج، ص١٨٧.
(٣) التأملات في الفلسفة الأولىٰ ص٤٢.
(٤) فلسفة ديكارت ومنهجه ص١٣٠.

وخلاصة أدلة ديكارت مع ذكر ما في بعضها من ملاحظات ما يلي:

الدليل الأول: ويسمىٰ بالدليل الأنطولوجي[(١)]، وهو إثباته كمال الله، وكونه تعالىٰ له جميع الكمالات؛ وبما أن الوجود كمال إذن فالله موجود، يقول ديكارت: ([أنا] في الحقيقة مضطر إلىٰ التسليم بأن الله موجود؛ بعد ان افترضت أنه حاصل علىٰ أنواع الكمال جميعها، ما دام الوجود واحدًا منها. وهذه الضرورة كافية -متىٰ تبينت أن الوجود كمال- في أن تحملني علىٰ أن استنتج أن هذا الموجود الأول الأعلىٰ موجود حقا)[(٢)].

وخلاصة هذا الدليل كما يلي:

١- الله تعالىٰ له كل كمال.

٢- الوجود كمال.

٣- فالله الأعلىٰ موجود[(٣)].

وقد استدرك الشيخ مصطفىٰ صبري علىٰ هذا الدليل وأنه لا يصلح ردًّا علىٰ من أنكر وجود الله، لكنه يصلح لمن يثبت وجود الله، يقول الشيخ: (أما الذي لا يعرف وجود الله، ويريد أن يعرفه من كونه جامع الكمالات، أو الذي يعرف وجوده، ويريد إثباته لمن لا يعرفه بدليل الكمال الجامع، فيقال له: إن سندك هذا في إثبات وجود الله قضية موجبة، تتوقف صحتها منطقياً علىٰ وجود موضوعها[(٤)]، الذي أنت بصدد إثبات هذا المدعىٰ، فتحتاج في تصحيح دليلك إلىٰ مراجعة دعواك، وهي المصادرة علىٰ

---

(١) انظر: فلسفة ديكارت ومنهجه ص١٣٠، علاقة العقل بالدين عند ديكارت ص٣٣.

(٢) التأملات، ص٢١٥-٢١٦.

(٣) انظر: حاشية التأملات ص٢١٦.

(٤) وهو وجود الله.

المطلوب، المعروف بطلانها عند العلماء)[(١)]. وهو استدراك ظاهر الصحة، والله أعلم.

الدليل الثاني: وهذا الدليل بعضهم أدرجه تحت الأول إلا أن المتأمل يجد فرقًا بينهما؛ لأن الأول إثبات الكمال لله من غير استدلال عليه بشيء، سوىٰ الفطرة والضرورة، وهذا استدلال علىٰ الكمال بوجود النقص في المخلوق. وخلاصة هذا الدليل أن ديكارت جعل كونه شاكًا دليل علىٰ نقصه، يقول: (لما فكرت في شكوكي، وأن مؤدىٰ هذا أن ذاتي لم تكن تامة الكمال؛ لأنني تَبيَّنتُ أن المعرفة كمال أكبر من الشك، رأيت أن أبحث أني تعلمت أن أفكر في شيء أكمل مني)[(٢)]، فتوصل بهذا إلىٰ ضرورة وجود موجود وجوده أكمل من وجوده، وهذه الفكرة وهي وجود ذات أكمل من وجود المخلوق، يرىٰ أنه لا يمكن استمدادها من العدم، يقول: (لأن استمداد تلك الفكرة من العدم أمر جلي الاستحالة. إذن فأنا لا أقدر أيضًا أن استمد هذه الفكرة من نفسي، وعلىٰ ذلك بقي أن تكون هذه الفكرة قد ألقيت إلي من طبيعة هي في الحقيقة أكبر مني كمالًا، بل ولها من نفسها كل الكمالات التي أستطيع أن أتصورها، وإذا أردت التعبير بكلمة واحدة عن تلك الطبيعة فإن المراد بها الله .. أنا تابع له، ومن لدنه حصلت علىٰ كل ما هو لي)[(٣)].

وهذا دليل صحيح.

الدليل الثالث: دليل «الضرورة إلىٰ خالق» في قول ديكارت: (لو كنت خالق وجودي لكنت منحت نفسي جميع الكمالات التي تنقصني، والتي

---

(١) موقف العقل والعلم (٢/ ٢٢٧).

(٢) مقال عن المنهج، ص١٥٥.

(٣) مقال عن المنهج، ص١٥٥-١٥٦.

لدي فكرة عنها؛ لأن خلق هذه الكمالات التي ليست إلا أحوالًا للجوهر أسهل من خلق الجوهر نفسه)[(١)]. ويقول: (لو كنت مستقلا عن كل شيء سواي، وكنت أنا نفسي خالق وجودي، لما كنت أشك في شيء أو أشتهي شيئا، ولما كنت بالإجمال مفتقرا إلىٰ أي كمال، لأني كنت أمنح نفسي كل كمال يخطر ببالي، وأكون حينئذ إلها)[(٢)].

وهذا يختلف عن الدليل الذي قبله أيضًا؛ لأن الذي قبله يتكلم عن وجود فكرة الموجود الكامل، وهذا يتكلم عن ضرورة وجود الكامل؛ لأن النقص في المخلوق يستلزم وجود الخالق، فالفقير محتاج للغني.

وهذا الدليل ممكن أن يستنبط من عموم قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣١-٣٥].

الدليل الرابع: «دليل قياس الأولىٰ»، يقول ديكارت: (بقدر ما تتصور من الكمال في شيء، ينبغي أن نعتقد أن علته لا بد أن تكون أوفر منه كمالًا)[(٣)]، وهذا صحيح لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وواهب الكمال أولىٰ به، فلله المثل الأعلىٰ، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

الدليل الخامس: ويسميه بعض الباحثين مثل «فيشر» بـ «الدليل الإنساني»[(٤)]، وهو وجود (فكرة وجود الله) نفسها، يقول ديكارت: (فكرة موجود كامل إطلاقًا وهي فكرة نجدها فينا تشمل قدرًا من الحقيقة

(١) التأملات ص١٢٦.
(٢) التأملات ص١٥٧.
(٣) مبادئ الفلسفة ص٦٢.
(٤) انظر: فلسفة ديكارت ومنهجه ص١٣٠.

الموضوعية، أي تشارك بالتصور في قدر من درجات الوجود والكمال بحيث يلزم أن تصدر عن علة كاملة علىٰ الإطلاق. وهذا ما أوضحته بإيراد التشبيه بآلة في غاية البراعة والإتقان، ترد فكرتها علىٰ ذهن صانع ما، فإنه كما أن ما لهذه الفكرة من إتقان موضوعي، لابد له من علة معينة، إما أن تكون علم ذلك الصانع، أو علم واحد غيره تلقىٰ هو عنه تلك الفكرة.

فكذلك يمتنع بالنسبة إلىٰ فكرة الله التي فينا ألا يكون الله ذاته علة لها)[١].

ويقول: (ما دمنا نجد في أنفسنا فكرة إله أو موجود كامل علىٰ الإطلاق، فيجوز لنا أن نبحث عن العلة التي أوجدت تلك الفكرة فينا، ولكن بعد التفاتنا إلىٰ ما تمثله لنا من عظيم الكمالات؛ نجد أنفسنا مضطرين إلىٰ الإقرار بأنها إنما جاءت إلينا من موجود كامل جدًّا، أي: من إله هو موجود حقًّا؛ لأنه ليس من البيِّن فقط بالنور الفطري أن العدم لا يمكن أن يكون موجدًا لشيء مهما يكن، وأن الأكمل لا يمكن أن يكون ناتجًا عن الأقل كمالًا أو تابعًا له؛ بل لأننا نرىٰ أيضا بهذا النور نفسه أن من المحال أن يكون لدينا فكرة أو صورة لأي شيء ما لم يكن في أنفسنا أو خارج أنفسنا أصل يحوي بالفعل جميع ما نتمثله بتلك الفكرة من كمالات، ولكن من حيث إننا نعلم أننا عرضة لكثير من النقص، وأننا لا نملك هذه الكمالات المطلقة التي نتمثلها، فيلزمنا أن نستنتج أنها موجودة في طبيعة مختلفة عن طبيعتنا، بالغة غاية الكمال، أي: هي الله، أو علىٰ الأقل أنها كانت في الله من قبل[٢]، وبما أنها لامتناهية فلا بد أنها لا تزال قائمة فيه)[٣].

---

(١) التأملات في الفلسفة الأولىٰ ص٤٢. وانظر ص١٢٣-١٢٤، ١٥٤.

(٢) يفهم من كلام ديكارت وصف الله بالكمال أزلا وابدًا، وهذا المعنىٰ حق.

(٣) مبادئ الفلسفة ص٦٣.

ويقول: (متىٰ تصور الوجود الضروري الأبدي متضمنا في فكرته عن الوجود الكامل إطلاقًا، لزم أن يستنتج أن هذا الموجود الكامل بإطلاق موجود حقًا)[١].

ويظهر لي أن هذا دليل الفطرة نفسه، فهي فطرة الله التي فطر الناس عليها.

الدليل السادس: «دليل البقاء»، وهو من القيومية، والبعض يسمية «دليل الخلق المستمر»[٢]، وفيه نظر؛ لأن القيومية والإبقاء تكون بعد الخلق، وخلاصة الدليل أن بقاء الإنسان إلىٰ أجل يحتاج إلىٰ قوة وقدرة من غيره، ويجب أن تكون موجودة، وأن تكون هي باقية لا تفنىٰ، كما أن وجود المخلوق محتاج إلىٰ خالق، يقول ديكارت: (آجالنا في حياتنا كافية وحدها لإثبات وجود الله؛ ما أظن أن أحدًا يساوره الشك في حقيقة هذا التدليل إذا التفت إلىٰ طبيعة الزمان أو أجل الإنسان في الحياة؛ ذلك لأنه لما كان من طبيعة الزمان أن لا تعتمد أجزاؤه بعضها علىٰ بعض، ولا يجتمع بعضها مع بعض أبدًا. فليس يلزم من وجودنا الآن أن نكون في الزمان الذي يليه، وما لم تكن العلة نفسها التي أوجدتنا مستمرة في إيجادنا، أي: حافظة لبقائنا. ومن الميسور أن نعلم أننا لا نملك قوة تكفل لنا الاستقرار في الوجود أو حفظه علينا لحظة واحدة، وأن القادر علىٰ إبقائنا وحفظ وجودنا خارج ذاته؛ لا بد أنه قادر علىٰ حفظ بقائه هو ذاته، وهو خليق أن لا يفتقر إلىٰ من يحفظه ويبقيه، ذلكم هو الله)[٣].

وهو دليل صحيح أيضًا.

---

(١) مبادئ الفلسفة ص٦١.

(٢) انظر: فلسفة ديكارت ومنهجه ص١٣٠.

(٣) مبادئ الفلسفة ص٦٥-٦٦.

الدليل السابع: دليل امتناع التسلسل في العلل[١]، وهو دليل صحيح مشهور، يقول ديكارت: (من حيث أني شيء يفكر، وفي نفسي فكرة عن الله، كائنة ما كانت علة وجودي، فلا بد من التسليم بأن هذه العلة هي أيضًا شيء يفكر؛ وأنها مالكة لفكرة جميع الكمالات التي أنسبها إلىٰ الله. ثم يصح أن نبحث من جديد عن أصل هذه العلة ووجودها، وهل هما من ذاتها أو من علة أخرىٰ؛ لأنه لو كان وجودها من ذاتها للزم مما قدمت أن تكون هذه العلة هي الله؛ لأنها لما كانت مالكة لصفة الوجود من ذاتها، فلا بد أن يكون لها كذلك القدرة علىٰ [أن] تملك بالفعل كل كمال تخطر لها فكرته، وبعبارة أخرىٰ لا بد أن تملك جميع صفات الكمال التي أتصورها في الله، أما إذا كان وجودها عن علة أخرىٰ غير ذاتها، فلنا أن نتساءل من جديد، وللسبب عينه عن هذه العلة الثانية: هل وجودها من ذاتها أو من غيرها، ونتدرج حتىٰ نصل أخيرًا إلىٰ علة قصوىٰ ستكون هي الله. وجلي جدًّا أنه لا يصح في هذا المقام أن نذهب في تدرج العلل إلىٰ غير نهاية)[٢].

الدليل الثامن: «دليل الفطرة» يقول ديكارت عن فكرة وجود الله: (هذه الفكرة ولدت ووجدت معي منذ خلقت .. والحق أنه لا ينبغي أن نعجب أن الله حين خلقني غرس في هذه الفكرة؛ لكي تكون علامة الصانع مطبوعة علىٰ صنعته)[٣].

ولا شك أن الله تعالىٰ فطر الناس علىٰ توحيده ومعرفته، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ

(١) التأملات ص١٦٠-١٦١.
(٢) التأملات ص١٦٠-١٦١.
(٣) التأملات ص١٦٣.

﴿لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّومِ: ٣٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإنه تعالىٰ فطر خلقه علىٰ معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره، كما تقدم عند قوله تعالىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافِ: ١٧٢]، وفي الحديث: **(إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم)**[١].

وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: معناه لا تبدلوا خلق الله، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها. فيكون خبرا بمعنىٰ الطلب، وهذا معنىٰ حسن صحيح. وقال آخرون: هو خبر علىٰ بابه، ومعناه: أنه تعالىٰ ساوىٰ بين خلقه كلهم في الفطرة علىٰ الجبلة المستقيمة، لا يولد أحد إلا علىٰ ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك؛ ولهذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد في قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: لدين الله.

وقال البخاري: قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾: لدين الله، خلق الأولين: دين الأولين، والدين والفطرة: الإسلام.

[ثم روىٰ البخاري بإسناده عن أبي] هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما من مولود يولد إلا علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُنتَج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء)؟ ثم يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[٢]).

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).
(٢) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

وغالب هذه الأدلة التي ذكرها ديكارت صحيح لا إشكال فيه، وإن كان لا يحتاج سليم الفطرة أن يتعب ذهنه بمثل هذه الأدلة، فإنها بدهية لا يتطرق إليها الشك عنده.

ولخَّص ديكارت بعض حججه علىٰ وجود الله بقوله: (كل قوة التدليل الذي استخدمته هنا لإثبات وجود الله تقوم علىٰ التسليم بأن طبيعتي لا يمكن أن تكون ما هي، ويكون في نفسي فكرة إله، ما لم يكن الله موجودًا حقًّا -أقصد هذا الإله عينه الذي فكرته موجودة في ذهني، أي الموجود الحائز لجميع هذه الكمالات السنية، التي قد تخطر لأذهاننا عنها فكرة ضئيلة ولكن دون أن تستطيع الإحاطة بها، هذا الإله المنزه عن كل عيب، المبرأ من شوائب النقص. ويتبين من هذا بيانا كافيا أنه تعالىٰ لا يمكن أن يكون مخادعًا، لأن النور الفطري يرشدنا إلىٰ أن المخادعة إنما تصدر بالضرورة عن نقص أو عيب)(١).

وكما أثبت ديكارت وجود الله فهو يثبت انه تعالىٰ لا شريك له في وجوده وصفاته، يقول: (لا يمكنني أن أتصور إلهين أو أكثر علىٰ شاكلته، وإذ سلمنا بأن ثمة إلها هو الآن موجود، فإني أرىٰ بوضوح أنه لابد أن يكون موجودًا منذ الأزل، ولابد أن يكون موجودا إلىٰ الأبد، وأخيرًا أتصور في الله صفات أخرىٰ كثيرة لا أستطيع أن أنقص أو أن أغير منها شيئا)(٢).

---

(١) التأملات، ص١٦٤.
(٢) التأملات، ص٢١٧.

وهذا حق، يقول تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وأما كونه تعالىٰ موجودًا منذ الأزل، ولا بد أن يكون موجودًا إلىٰ الأبد، فيؤيده العقل القطعي، وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٢]، وقد فسرها النبي ﷺ فقال: **(أنت الأَوَّلُ فَلَيس قَبلَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الْآخرُ فَلَيسَ بَعدَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الظَّاهرُ فَلَيسَ فوقَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الْبَاطنُ فَلَيسَ دونَكَ شَيءٌ)**[١].

كما أن ديكارت رد أيضًا علىٰ منكري اليوم الآخر[٢].



(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٢) مقال عن المنهج، ص١٨٧.

خاتمة الباب

نخرج من هذا الباب بنتائج، أهمها:

١- دراسة موقف ديكارت من الدين ونقد ذلك في ضوء النقل والعقل الصحيحين في غاية الأهمية.

٢- يحمد لديكارت موقفه من الدين، وتعظيمه للدين، ورده علىٰ الملحدين، وعزله كلام أرسطو عن الدين، لكن ليته عزل ما أدخل في الدين من الأباطيل الأخرىٰ من غير أرسطو.

٣- لم يفرق «ديكارت» بين ما يحار فيه العقل، وما يحيله العقل مما يأتي به الدين، فيستحيل أن يأتي في الدين الحق ما يحيله العقل، لكن يأتي الدين بما يحار فيه العقل.

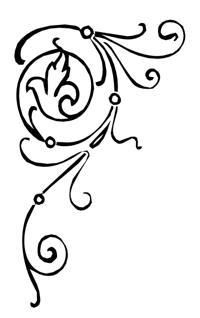
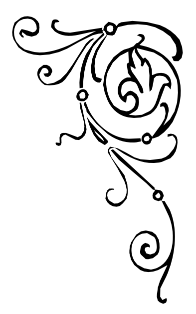
٤- تمسُّك ديكارت بالدين النصراني مع منهجه العقلي، سبَّب تناقضًا، فاضطر ديكارت لإخراج الدين عن التفكير العقلي، مما سبب الإلحاد والكفر بالكنيسة لمن جاء بعده، بسبب النفور من التناقض، وعُدَّ ديكارت عدوًّا للكنيسة وسببًا لهذا الإلحاد. والحق مع ما في منهج «ديكارت» من ضعف أن ما في الكنيسة من محالات وخرافات هو سبب ذلك.

٥- تعظيم ديكارت للدين هو تعظيم لدين النصارىٰ، وهو في مقابل طغيان الإلحاد، ومعلوم أنه إذا كان انتصار أهل الكتاب علىٰ الفرس يفرح به المؤمنون كما في سورة الروم، فانتصار النصرانية علىٰ الإلحاد أولىٰ. لكن ليس دين ديكارت هذا مما ينفعه في الآخرة، أو يخرجه من الكفر والشرك؛ لأنه لم يؤمن بمحمد ﷺ، ويتبع شرعه، وقد بلغه الإسلام والقرآن كما سبق إثباته.

٦- أوروبا في حاجة للإسلام للخروج من التيه والتناقض والحيرة والشك. فلا علاج لهم إلا هذا.

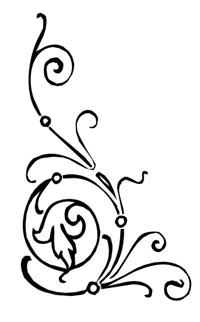
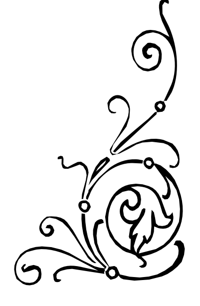
٧- الدين ضرورة للخلق، ولا يمنع التقدم في العلوم، لذلك دافع عنه ديكارت الذي اخترع الهندسة التحليلية، وأبدع في الرياضيات، وأثبت أن أدلة وجود الله أعظم يقينًا من أدلة الهندسة والرياضيات؛ فحبذا نشر كلامه عن الدين في أوساط العلمانيين والملاحدة في الشرق والغرب.



الباب الثالث

مفهوم القضاء والقدر عند ديكارت



التمهيد

وفيه مقدمات حول القضاء والقدر

إن الإيمان بالقضاء والقدر أحد أركان الإيمان الستة، وهو من أكبر أسباب سعادة المرء وطمأنينته، أو شقائه وخوفه وحيرته واضطرابه، إذا لم يؤمن بها علىٰ الوجه الصحيح، وقد كثر الاضطراب فيه جدًّا، بسبب أنه في مجمله من الغيب الذي لا يستطيع العقل البشري أن يصل إلىٰ كنهه، ويحار فيها، ولا يفلح فيه إلا من سلَّم تلقِّيه عن طريق الأنبياء عليهم السلام، بكامل التسليم، وترك الخوض فيما وراء ذلك.

وقد أشغلت هذه العقيدة البشرية المتنكِّبة طريق الأنبياء منذ القدم، ولا زالت تشغل البشرية إلىٰ اليوم، وفي كل زمان؛ لأن فيها إشكالات وأسئلة كثيرة تطرحها العقول تحتاج فيها إلىٰ جواب مقنع، وهيهات أن يكون ذلك من غير طريق الأنبياء عليهم السلام.

وقد ذكر الفيلسوف «رنوفييه»[(١)] أن كل المذاهب الفلسفية تدور حول مشكلة التناقض الموجود بين فكرتي الجبر والحرية، أو الجبر والاختيار، وعلىٰ هذا فكما يقول الدكتور عبدالرحمن بدوي: (فإن المذاهب الفلسفية ليست غير محاورة أبدية بين أنصار هذين الرأيين وليس ثمَّة من جديد في أمر الفلسفة؛ لأنَّ كل تفكير فلسفي يدور حول هذا الموضوع)، وقال:

---

(١) شارل رنوفييه، فيلسوف فرنسي، مؤسس مذهب «الشخصية» ولد سنة ١٨١٥م، تأثر بأستاذه أوجيست كونت، توفي سنة ١٩٠٣م. انظر: موسوعة الفلسفة (١/ ٥٢٥).

(ورأي «رنوفييه» هذا يمثِّل الحالة التي وصل إليها تاريخ الفلسفة في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين)[١].

ولا تزال البشرية متعطِّشة لمعرفة الحق في هذه المسائل، ومتطلعة إلىٰ من يهديهم فيها سواء السبيل، خاصة أن مشكلة خلق الشر من أهم أسباب انتشار الإلحاد في العالم الغربي والشرقي إلىٰ اليوم، فالناس في الحقيقة في حاجة لما جاء به نبينا محمد ﷺ، من عقيدة حول القضاء والقدر منسجمة مع العقل والفطرة، مثمرة الأمن والطمأنينة والراحة والقوة والشجاعة؛ فلم يبق وحي منزل محفوظ غيره.

ورينيه ديكارت، له كلام عميق حول القضاء والقدر، وفيه أخطاء كبيرة، وفيه صواب محتاج لإبرازه والإشادة به ونشره بين الغربيين. وقبل البدء فيه أذكر باختصار بعض المقدمات حول القضاء والقدر:

المقدمة الأولىٰ: معنىٰ القضاء والقدر في اللغة والشرع:

القضاء لغة: هو الحتم والفراغ والإتمام، والقدر: بمعنىٰ التقدير[٢].

وهما في الشرع: تقدير الله تعالىٰ الأشياء في القِدَم، وعلمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده وعلىٰ صفات مخصوصة، وكتابته سبحانه لذلك، ومشيئته لها، ووقوعها علىٰ حسب ما قدرها، وخَلْقُه لها[٣].

---

(١) موسوعة الفلسفة (١/ ٤١٩).

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة (٥/ ٦٢)، تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة (ص٤٤١-٤٤٢).

(٣) انظر: القضاء والقدر، د.عبدالرحمن المحمود ص٤٠.

المقدمة الثانية: منزلة الإيمان بالقدر من الدين:

الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان الستة التي وردت في قوله ﷺ عندما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان: **(أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)**[١]، وقال ﷺ: **(كُلُّ شَيءٍ بِقَدَرٍ حَتَّىٰ الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ)**[٢]، وقد ورد ذكر القدر في القرآن كثيرًا، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جَاءَ مُشْرِكُوا قُرَيْشٍ يُخَاصِمُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ في القَدَرِ، فَنَزَلَتْ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[٣]. وقال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] أي: قضاءً مقضيًا وحكمًا مبتوتًا. وقال تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

قال النووي: (تظاهرت الأدلة القطعيات من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف علىٰ إثبات قدر الله سبحانه وتعالى)[٤]. وقال ابن حجر: (مذهب السلف قاطبة أن الأمور كلّها بتقدير الله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١])[٥].

(١) رواه مسلم (٨).
(٢) رواه مسلم (٢٦٥٥).
(٣) رواه مسلم (٢٦٥٦).
(٤) شرح مسلم (١/ ١٥٥).
(٥) فتح الباري (١١/ ٤٧٨).

المقدمة الثالثة: مراتب الإيمان بالقدر:

لا يتم الإيمان بالقدر حتىٰ يُؤمَن بأربع مراتب[(١)]**، وهي:**

المرتبة الأولىٰ: مرتبة العلم: وهي الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأن الله قد علم جميع خلقه قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون بعلمه القديم، وأدلة هذا كثيرة منها قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ﴾ [الحشر: ٢٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]. وقال تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وهو دليل للكتابة أيضًا.

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة: وهي الإيمان بأن الله كتب مقادير جميع الخلائق في اللوح المحفوظ، ودليل هذا قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقوله ﷺ: **(كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)**[(٢)].

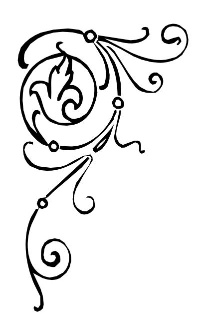
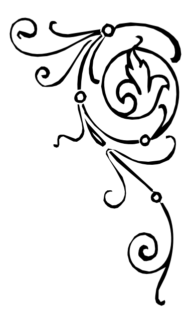
المرتبة الثالثة: مرتبة الإرادة والمشيئة: وهي الإيمان بأن كل ما يجري في هذا الكون فهو بمشيئة الله سبحانه وتعالى؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يخرج عن مشيئته شيء، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ

(١) انظر: العقيدة الواسطية ص١٠٣-١٠٧، شفاء العليل ص٦٦.
(٢) رواه مسلم (٢٦٥٣).

ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق: وهي الإيمان بأن الله تعالىٰ خالق كل شيء، ومن ذلك أفعال العباد، فلا خالق غيره، لقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]. وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].



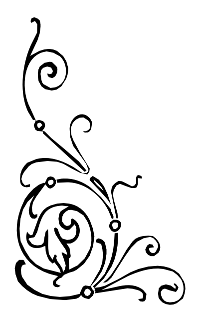
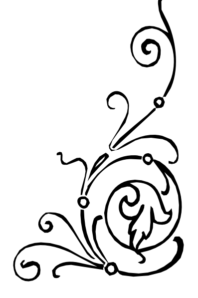



الفصل الأول
مباحث حول الإرادة

المبحث الأول: إرادة الإضلال عند ديكارت.

المبحث الثاني: إرادة الخالق وإرادة المخلوق عند ديكارت.

المبحث الثالث: الجمع بين الإيمان بالقدر وإرادة العبد وحريته عند ديكارت.



المبحث الأول

إرادة الإضلال عند ديكارت

ينفي ديكارت عن الله تعالىٰ إضلال أو إرادة إضلال من يشاء، مع إثباته قدرة الله علىٰ ذلك، ويرىٰ أن ذلك من علامات النقص والضعف.

يقول ديكارت: (من المحال أن يضلَّني الله؛ إذ أن في الخداع أو الغش نقصًا، ولئن يكن يبدو أنَّ استطاعةَ المخادعة من علائمِ البراعة والقوة؛ فلا جرم أن تعمُّد المخادعة دليل علىٰ الضعف أو علىٰ الخبث؛ وهما أمران لا يمكن أن يوجدا في الله)[١]. وقال: (من المحال أن يشاء الله أن يضلني)[٢].

ويقول: (إذا كان مما يتنزه الله واسع الكرم والرحمة أن يكون قد خلقني عُرضة لضلالٍ مقيمٍ؛ فيبدو كذلك مما لا يليق بمقامه أن يأذن بوقوعي في الضَّلال أحيانًا، وليس في استطاعتي أن أشكَّ في أن هذا يقع بإذنه)[٣].

وفي كلام ديكارت هذا إذا عرض علىٰ الوحي المعصوم والعقل السليم حقٌّ وباطلٌ كبير؛ أما الباطل فجعله من المحال أن يضل الله من

---

(١) التأملات في الفلسفة الأولىٰ ص١٧٨، ١٧٠. وانظر منه: ص١٢٩، ١٦٤. وانظر: مبادئ الفلسفة ص٧٠.

(٢) التأملات في الفلسفة الأولىٰ ص١٧٩.

(٣) التأملات ص١٧٧-١٧٨.

يشاء، وجعله إرادة الله الإضلال من علامات الخُبث والضعف؛ وهو وإن كان الله تعالىٰ لا يظلم أحدًا، ولا يضل قومًا بعد إذا هداهم حتىٰ يبين لهم ما يتقون، ولم يترك الخلق بلا رسل، ولا كتب تبين لهم الحق، لكن ديكارت قال: (مما لا يليق بمقامه أن يأذن بوقوعي في الضلال أحيانًا)، وهذا خطأ كبير، وهو تشبيه للخالق بالمخلوق.

وكذا أخطأ في نفيه المخادعة عن الله بإطلاق.

فيقال: جعله إضلال الله من يشاء مما لا يليق به، ومن علامة الضعف، قول بلا علم، فإضلال الله تعالىٰ لمن يشاء من عباده تقتضيه حكمته وعدله وقدرته. والإضلال شيء والله تعالىٰ علىٰ كل شيء قدير، لذلك قال الإمام أحمد: (القدرُ قدرة الله)[1]، وقد بين تعالىٰ أنه يضلُّ من يشاء، ويريد أن يضلَّ من يشاء، منها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [النحل: ٩٣]، وقوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩]، وقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وغيرها من الآيات الكثيرة، وقد آمن بها أهل السنة والجماعة من غير تحريف، فإن فيها إثبات الكمال لله تعالىٰ، وهو ما

(١) انظر: شفاء العليل ص٢٨.

يدل عليه العقل السليم، فإن الضلال لو لم يكن بقدر الله وإرادته الكونية لكان يوجد في ملكه تعالىٰ مالا يشاؤه، وهذا تنقص لكمال مُلكه، وفرار من شيء مع الوقع فيما هو شر منه.

ومن الخطأ في كلام ديكارت نفي المخادعة عن الله تعالىٰ بإطلاق، وهو وإن كان الله تعالىٰ ينزَّه أن يخادع من غير عدل وحكمة، إلا أنه تعالىٰ يخادع من يخادعه؛ لذلك لم يجيء في أسماء الله (المخادع) هكذا بإطلاق؛ لأن المخادعة بإطلاق تكون نقصًا والله منزه عنه، وأسماء الله كلها حسنىٰ لا نقص فيها بوجه.

كما أنه لا يجوز أن يوصف الله تعالىٰ بالمكر والكيد والاستهزاء ونحوها وصفًا مطلقًا، ويشتق له من ذلك أسماءً؛ لأنه حينئذٍ لا يكون كمالًا. لكن من كماله تعالىٰ أن يستهزئ بمن يستهزئ به أو بآياته أو رسله، وأن يخادع من يخادعه وهكذا في نحوها من الصفات، وهذا من كمال قدرته وملكه وقهره وقوته وعزته وجبروته وكبريائه، وهذا يدل عليه العقل فإن من يخادَع وهو لا يستطيع مقابلة ذلك فهو من علامات الضعف، ولله المثل الأعلىٰ، لذلك جاء القرآن بالكمال لله تعالىٰ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النِّسَاءِ: ١٤٢]. فالمخادعة كالمكر والكيد والاستهزاء يكون كمالًا إذا كان علىٰ وجه المقابلة والعقوبة العادلة، ويكون حينئذٍ من الكمال، وضده يكون من الضعف والعجز والله تعالىٰ منزه عنه. قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأَنفَالِ: ٣٠]. وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يمكرون برسول الله ﷺ. وقال تعالىٰ عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ

يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٤-١٥]. وهذا استهزاء بالمنافقين.

والحقُّ الذي في كلام ديكارت نوعان:

الأول: إثبات قدرة الله علىٰ إضلال من يشاء، وهو من قوله: (وليس في استطاعتي أن أشكَّ في أن هذا يقع بإذنه).

الثاني: نفيه عن الله تعالىٰ إضلال الناس إضلالًا عامًّا، بحيث لا يوجد طائفة مهتدية علىٰ وجه الأرض، وجعل الخلق يتخبطون في ضلال مقيم. وهذا مفهوم من كلامه كقوله: (فيبدو كذلك مما لا يليق بمقامه أن يأذن بوقوعي في الضَّلال أحيانًا)، فإذا نزه الله عن إضلال فرد، فهو ينفي عنه الإضلال العام من باب أولىٰ، وكذا قوله: (مما يتنزه الله واسع الكرم والرحمة أن يكون قد خلقني عُرضة لضلالٍ مقيمٍ)، وسأتكلم بإذن الله عن كل نوع علىٰ حدة:

النوع الأول: وهو قدرة الله علىٰ إضلال من يشاء فقد بينها تعالىٰ في القرآن في آيات كثيرة، سبق ذكر بعضها، وهو يدل علىٰ قدرته تعالىٰ عليه. ويدل علىٰ ذلك أيضًا الآيات الكثيرة التي فيها أنه تعالىٰ علىٰ كل شيء قدير؛ فإن الإضلال شيء فهو داخل تحت القدرة.

النوع الثاني: نفي أن يضل الله تعالىٰ خلقه إضلالًا عامًّا، بحيث لا يعرفون الحق من الباطل، أو تركِهم من غير أن تقوم الحجة عليهم، وهذا النفي حقٌّ فإن الله تعالىٰ رحيم بعباده، والأدلة علىٰ ذلك كثيرة منها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسرَاء: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النَّحل: ٣٦]، وقال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ

ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، وغيرها من الآيات.

وقد بيَّن سبحانه في آيات كثيرة أنه إنما أضل من ضلَّ بسبب منه يستحق به ذلك، فقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، يقول الإمام الطبري في تفسيرها: (فلمَّا عدَلوا وجاروا عن قصد السبيل أزاغ الله قلوبهم: يقول: أمال الله قلوبهم عنه. يقول: والله لا يوفِّق لإصابة الحقّ القوم الذين اختاروا الكفر علىٰ الإيمان)ا.هـ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وبين تعالىٰ أن سبب دخول الكفار النار هي أعمالهم وكسبهم، قال الله تعالىٰ عن أهل النار: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤]. واعترف اهل النار بذلك كما حكىٰ الله تعالىٰ قولهم، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥-١٠٦].

والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، والحمد لله.





المبحث الثاني

إرادة الخالق وإرادة المخلوق عند ديكارت

أثبت ديكارت حرية العبد، إلا أنه جعلها حرية مطلقة، بل قد غلا في إرادته حتىٰ جعلها مثل إرادة الله تعالىٰ الله عن ذلك علوا كبيرا، يقول ديكارت: (لا أتصوَّر إرادةً أوسع من إرادتي، صحيحٌ أنَّ في الله زيادة علىٰ حرية الإرادة، علمًا وقدرة أعلىٰ من علمي وقدرتي، لكن الحرية نفسها؛ أي القدرة علىٰ إرادة شيء أو عدم إرادته، ليس في الله أكثر اتساعًا ممَّا فيَّ)(١).

فهو جعل قدرة الله وعلمه أعظم من قدرة وعلم المخلوق، وأنه لا مقارنة في ذلك بين الخالق والمخلوق، كما سيأتي، لكنه جعل القدرة علىٰ الإرادة عند المخلوق مماثلة لها عند الخالق، ولا شك أن هذا تمثيلٌ من هذا الوجه؛ لأنه لم يقتصر علىٰ التشابه في المعنىٰ اللغوي، بل عداه إلىٰ أكثر من ذلك. والله تعالىٰ يقول: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشُّورَىٰ: ١١].

ويقول ديكارت: (فمع أن هذه الإرادة أعظم في الله مما هي فيَّ أنا، دون إي وجه للمقارنة؛ وذلك إما لأن انضمام المعرفة والقدرة إليها يجعلها أمتن وأشدُّ تأثيرًا، وإما لأن الموضوعات التي تتعلق بها إرادة الله كثيرة

(١) التأملات ص١٧٢.

لا يحصرها العد؛ فإنها علىٰ الرغم من هذا لا تبدو لي في الله أكبر مما هي فيَّ، إذا أنا اعتبرتها من حيث هي علىٰ جهة الصورة وعلىٰ جهة التحديد)[١].

فالتمثيل عنده إذا اعتبرها علىٰ جهة الصورة وعلىٰ جهة التحديد، وليس فقط في المعنىٰ اللغوي، وواضح من هذا والله أعلم التباس مسألة القدْر المشترك عند ديكارت بين ما يوصف به الرب وما يوصف به المخلوق عنده.

ويقول: (لا يصحّ أن أشكو من أنَّ الله لم يهبني حرية اختيار أو إرادة ذات حظ كافٍ من الرحابة والكمال، فالواقع أن تجارب وجداني تشهد بأن لي إرادة ضافية مترامية لا تحصرها حدود، ولا تحبسها قيود .. بحيث لا أتصور غيرها أوسع وأرحب منها. ولما كانت إرادتي بمثل هذه القوَّة؛ فهي علىٰ وجه الخصوص الأمر الذي يجعلني أحكم أني علىٰ صورة الله ومثاله)[٢].

فديكارت يظن أن كون الله تعالىٰ أعطاه الحرية الكاملة علىٰ الاختيار؛ أن حريته وإرادته كاملة كإرادة الله، وحاول أن يفرق بين إرادة الله وإرادته بفروق أُخرىٰ إلا أن هذا لم يخرجه من التمثيل من بعض الجهات، فإن حرية المخلوق ليست مطلقة فإنه لا يشاء إلا بعد مشيئة الله تعالىٰ. وبين إرادة المخلوق وإرادة الخالق تميُّز من وجه واشتراك من وجه، والاشتراك الذي بينهما هو المعنىٰ اللغوي، وهو كلي لا يوجد إلا في الذهن، أما في الخارج فلا تماثل بينهما، وهذا هو المشكِّك أو المتَّفق،

---

(١) التأملات ص١٨٧.

(٢) التأملات ص١٨٦-١٨٧. وانظر: مبادئ الفلسفة ص٧٣.

حيث يشتركان في المعنىٰ اللغوي ويختلفان في الكيفية والقدر، وهذا باب أخطأ في فهمه كثير من الخلق. والمشكك هو كما قال الجرجاني: (الكلي الذي لم يتساو صدقه علىٰ أفراده، بل كان حصوله في بعضها أولىٰ أو أقدم أو أشد من البعض الآخر؛ كالوجود فإنه في الواجب أولىٰ وأقدم وأشد مما في الممكن)[(١)].

وقول ديكارت: (الأمر الذي يجعلني أحكم أني علىٰ صورة الله ومثاله) كأنه فهم فهمًا خاطئًا الأثر الذي جاء في التوراة ووافقته السنة الصحيحة، ولفظ التوراة التي بين أيدينا اليوم: (وقال الله: نعمل الإنسان علىٰ صورتنا كشبهنا)[(٢)]، ولم يقل: علىٰ مثالنا، وهو كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة، قال شيخ الإسلام: (ولفظ التوراة فيه: (سنخلق بشرا علىٰ صورتنا يشبهنا)، لم يقل: علىٰ مثالنا، وهو كقول النبي في الحديث الصحيح)[(٣)]، وهو ما جاء عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: **(خلَقَ الله آدمَ علىٰ صورَتِهِ)**[(٤)]، والضمير هنا عند المحققين من أهل السنة عائد علىٰ الله تعالىٰ، أي علىٰ صورة الله تعالىٰ وتقدس، ولكن ليس المراد التمثيل كما فهمه ديكارت هنا، وإنما هو وجْهُ شَبَهٍ لا تعرف كيفيته، ويشبه هذا ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: **(أَوَّلُ زُمرَةٍ تلِجُ الجَنَّةَ صُورتُهُمْ علىٰ صُورةِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدْرِ)**[(٥)]، وفي رواية عند البخاري[(٦)]: **(وجُوهُهُمْ علىٰ صُورةِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدْرِ)**. فكون وجوههم

(١) التعريفات ص٢١٤.
(٢) سفر التكوين (١/ ٢٦).
(٣) الجواب الصحيح (٣/ ٤٤٢-٤٤٤).
(٤) متفق عليه رواه البخاري (٥٨٧٣)، ومسلم (٢٨٤١).
(٥) متفق عليه رواه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (٢٨٣٤).
(٦) ح(٦١٨٧).

علىٰ صورة البدر لا يلزم منه أن وجوههم تماثل القمر، لكن هو شبه من بعض الوجوه وهو النور والجمال ونحو ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية تعليقًا علىٰ هذا: (وشبه الشيء بالشيء يكون لمشابهته له من بعض الوجوه، وذلك لا يقتضي التماثل الذي يوجب أن يشتركا فيما يجب ويجوز ويمتنع .. بل هنا ثلاثة أشياء، أحدها: القدر المشترك الذي تشابها فيه، وهو معنىٰ كلي لا يختص به أحدهما، ولا يوجد كليًا عامًا مشتركًا إلا في علم العالِم. والثاني: ما يختص به هذا كما يختص الرب بما يقوم به من الحياة والعلم والقدرة. والثالث: ما يختص به ذاك كما يختص به العبد من الحياة والعلم والمقدرة، فما اختص به الرب ﷻ لا يشركه فيه العبد، ولا يجوز عليه شيء من النقائص التي تجوز علىٰ صفات العبد، وما يختص به العبد لا يشركه فيه الرب ولا يستحق شيئا من صفات الكمال التي يختص بها الرب ﷻ. وأما القدر المشترك كالمعنىٰ الكلي الثابت في ذهن الإنسان فهذا لا يستلزم خصائص الخالق ولا خصائص المخلوق فالاشتراك فيه لا محذور فيه)[١].



(١) الجواب الصحيح (٣/ ٤٤٢-٤٤٤).



المبحث الثالث

الجمع بين الإيمان بالقدر وحرية العبد عند ديكارت

يؤمن ديكارت بالتقدير السابق من الله تعالىٰ للأشياء، وإثبات إرادة العبد، وهذا حقٌّ، لكنه طرح سؤالًا: كيف يمكن التوفيق بين الحرية الإنسانية، وبين التقدير الإلهي؟ وأجاب بأن فهم ذلك صعب وعويص بل ممتنع علىٰ المخلوق لأنه متناهي الفكر، فقال: (نعلم بعلمٍ يقينيٍّ جدًّا أنَّ الله قدّر الأشياء جميعًا تقديرًا سابقًا علىٰ حصولها، ولكن بما أنَّ ما قد علِمْناه عن الله من قبل يؤكِّد لنا أن قدرته قد بلغت من العظمة مبلغًا يجعلنا من الآثمين لو خطَر لنا أنه كان بمقدورنا أن نعْمل شيئًا لم يقدِّره من قبل. فمن الميسور أن نتورَّط في صعوبات عويصة جدًّا لو أردنا أن نوفِّق بين حرية إرادتنا وبين أوامر الله، وحاولنا أن نفهم هاتين الحقيقتين، وكأن عقولنا تستطيع أن تتناول حرية اختيارنا وتقدير العناية الأزلية فتحيط بهما إحاطة. في حين أنَّنا لن نجد عناءً في التخلص من تلك الصعوبات إذا التفتنا إلىٰ أن فكرنا متناهٍ، أن قدرة الله الشاملة -تلك القدرة التي علم بها كل ما هو كائن أو ما يمكن أن يكون، بل أراده منذ الأزل- هي قدرة لامتناهية. والحاصل أننا نملك من العقل ما يكفي لأن نعرف بوضوح وتميُّز أن تلك القدرة في الله؛ وليس لدينا منه ما يكفي لأن نفهم مدىٰ تلك القدرة إلىٰ الحد الذي نعلم معه كيف تأذن بأن تكون أفعالنا بتمامها حرة غير مقيدة، وإننا من جهة أخرىٰ لواثقون من الحرية وعدم التقيد القائمين فينا

بحيث لا نعرف شيئًا بوضوح أكثر مما نعرفهما؛ ولذلك لا ينبغي أن تكون قدرة الله الكاملة مانعة لنا من هذا الاعتقاد، فإن من الخطأ أن نشك فيما ندركه جوانب ونعلم بالتجربة وجوده في أنفسنا؛ لأننا لا نفهم شيئًا آخر نعلم أنه ممتنع علىٰ الفهم بطبيعته)[(١)].

هذا كلام ديكارت، وفيه أيضًا صواب كثير، فقوله: إننا من (الآثمين لو خطَر لنا أنَّه كان بمقدورنا أن نعمل شيئًا لم يقدِّره من قبل) هذا حقٌّ لا شك فيه، فمن لم يؤمن بالقدر فهو علىٰ ضلال أو كفر فإن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان الستة كما سبق ذكره. وكذلك إيمانه بحرية العبد.

ولكن قوله بصعوبة فهم الجمع بين حرية العبد وبين أوامر الله أو وبين القدر، فهذا عنده، أما عند كثير غيره فلا يمتنع ولا يصعب فهم ذلك.

فالقدر أربعة مراتب كما سبق: العلم، والكتابة، والخلق، والمشيئة.

فالعلم والكتابة لا يعارضا حرية العبد؛ لأنهما لا يلزم منهما أن يكون العبد مُكرهٌ علىٰ الفعل، بل هما كاشفان لما سيختاره العبد؛ لأن الله تعالىٰ يعلم الشيء قبل وقوعه، فعلم ما سيختاره العبد من غير إكراه، وكتبه عليه، وكذلك الخلق والمشيئة، لذلك نُقل عن كثير من أئمة السلف: (ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن أنكروا كفروا)[(٢)]، قال ابن رجب: (يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد، وأن الله تعالىٰ قسمهم قبل خلقهم إلىٰ شقي وسعيد، وكتب ذلك عنده في كتاب حفيظ فقد كذب بالقرآن فيكفر بذلك، وإن أقروا بذلك وأنكروا أن الله خلق أفعال

---

(١) مبادئ الفلسفة ص٧٦-٧٧.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ (٢٣/ ٣٤٩)، طريق الهجرتين (١/ ١٥١)، شرح العقيدة الطحاوية ص٣٠٢.

العباد وشاءها وأرادها منهم إرادة كونية قدرية فقد خُصموا؛ لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه، وفي تكفير هؤلاء نزاع مشهور بين العلماء، وأما من أنكر العلم القديم فنص الشافعي وأحمد علىٰ تكفيره وكذلك غيرهما من أئمة الإسلام)[١].

فإرادة العبد سبب معه أسباب أخر؛ فإذا وجدت كان ذلك سببًا في خلق الله لفعل العبد وإخراجه من العدم إلىٰ الوجود، كما أن الزارع يزرع البذْرة ويسقيها ويعرضها للشمس، وغير ذلك من الأسباب، فإذا انتفت الموانع كان ذلك سببًا في خلق الله تلك الشجرة.

وكذلك الكلام في مشيئة الله تعالىٰ، فلا تكون مشيئة العبد إلا بعد مشيئة الله، قال تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩]، قال القرطبي والبغوي: فبيَّن بهذا أنه لا يعمل العبد خيرًا إلا بتوفيق الله، ولا شرًّا إلا بخذلانه.

يقول الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامًا فيه جواب واضح علىٰ ما استصعبه ديكارت، يقول: (إن العبد إذا صلىٰ وصام وفعل الخير، أو عمل شيئًا من المعاصي؛ كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح، وذلك العمل السيئ، وفعله المذكور بلا ريب قد وقع باختياره، وهو يحسُّ ضرورةً أنه غير مجبور علىٰ الفعل أو الترك، وأنه لو شاء لم يفعل، وكان هذا هو الواقع؛ فهو الذي نص الله عليه في كتابه، ونص عليه رسوله؛ حيث أضاف الأعمال صالحها وسيئها إلىٰ العباد، وأخبر أنَّهم الفاعلون لها، وأنَّهم ممدوحون عليها إن كانت صالحة ومثابون، وملومون عليها إن كانت سيئة ومعاقبون عليها.

(١) جامع العلوم والحكم ص٣٩.

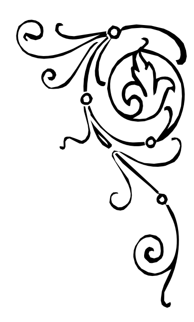
فقد تبيَّن بلا ريب أنها واقعة منهم باختيارهم، وأنَّهم إذا شاءوا فعلوا، وإذا شاءوا تركوا، وأنَّ هذا الأمر ثابت عقلًا وحسًا وشرعًا ومشاهدة.

ومع ذلك إذا أردت أن تعرف أنها وإن كانت كذلك واقعة منهم كيف تكون داخلة في القدر، وكيف تشملها المشيئة؟ فيقال: بأيِّ شيءٍ وقعت هذه الأعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها؟ فيقال: بقدرتهم وإرادتهم؛ هذا يعترف به كل أحد، فيقال: ومن خلق قدرتهم وإرادتهم ومشيئتهم؟ فالجواب الذي يعترف به كل أحد: أن الله هو الذي خلق قدرتهم وإرادتهم، والذي خلق ما به تقع الأفعال هو الخالق للأفعال. فهذا هو الذي يحل الإشكال، ويتمكَّن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار.

ومع ذلك فهو تعالىٰ أمدَّ المؤمنين بأسباب وألطاف وإعانات متنوعة وصرف عنهم الموانع؛ كما قال ﷺ: (**أما من كان من أهل السعادة؛ فسييسر لعمل أهل السعادة**)، وكذلك خذل الفاسقين، ووكلهم إلىٰ أنفسهم؛ لأنهم لم يؤمنوا به، ولم يتوكَّلوا عليه، فولَّاهم ما تولَّوا لأنفسهم)[(١)].



(١) التنبيهات اللطيفة علىٰ ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة ص٩٠-٩١. ضبط نصها وخرج أحاديثها محمد سليمان آل بسام.

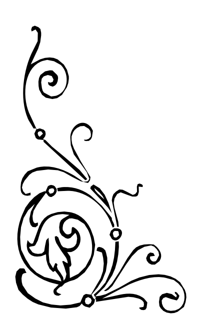
الفصل الثاني
مباحث حول الشر والخطيئة

المبحث الأول: سبب وقوع الخطأ والشر عند ديكارت.

المبحث الثاني: هل الله يريد الشر، وهل الشر يرجع إلىٰ الله عند ديكارت؟

المبحث الثالث: كيف نتلافىٰ الخطأ والشرَّ عند ديكارت؟

المبحث الرابع: رد الاعتراض علىٰ وجود النقص والشر في المخلوق.






المبحث الأول

سبب وقوع الخطأ والشر عند ديكارت

طرح ديكارت هذا السؤال كثيرًا وهو: (ما منشأ ما نقع فيه من خطأ؟)؛ ففرض أولًا أن الخطأ سلبٌ وليس وجودًا، وليس مخلوقًا، وأنه ناشئ من النقص الذي في الإنسان، يقول: (إذا نظرتُ إلىٰ نفسي باعتبار أني مشارك في اللاوجود [العدم]؛ أي باعتبار أنه ينقصني أشياء كثيرة، وجدتُني عرضة لعيوب لا تحصىٰ، وهذا علَّة الخطأ فيما يبدو، فليس الخطأ شيئًا واقعيًا إيجابيًا معتمدًا علىٰ الله، بل هو سلبٌ وعيب؛ من أجل هذا لم يكن غلطي محتاجًا إلىٰ ملَكة يمنحني الله إياها لهذا الغرض خاصة)[(١)].

إلا أنه استدرك علىٰ هذا الفرض، فقال: (لكن هذا التفسير غير مقنع؛ ذلك أن الخطأ ليس سلبًا بحتًا، بل هو «حرمان» أي نقص إيجابي، وليس هو نقصانًا في المعرفة، وإنما هو عيب في الحكم؛ وهو من أجل ذلك يتطلَّب علة إيجابية غير العدم)[(٢)]. ويقول: (وأما الحرمان الذي هو وحده قوام صورة الخطأ والإثم فليس في حاجة إلىٰ مشاركة الله فيه؛ لأنه ليس شيئًا ولا موجودًا، ولأننا إذا أرجعناه إلىٰ الله باعتباره علة له لما وجب أن يسمىٰ حرمانًا، بل نفيا وفقًا لمعنىٰ هذين اللفظين في اصطلاح المدرسيين)[(٣)].

(١) التأملات ص١٧٠.

(٢) التأملات ص١٧١.

(٣) التأملات ص١٩٤.

وكلامه هذا يقتضي بحث مسائل؛ وهي: هل الخطأ والشر عدم أو وجود؟ وهل هو مخلوق أو لا؟ وأما هل كون الشر حرمانًا أو لا فسأبحثه فيما يأتي إن شاء الله:

فالجواب: أنَّ الشر منه ما هو عدم، ومنه ما هو وجود، والموجود منه مخلوق؛ فأما دليل الوجود فهو الواقع أولًا، وكونه مخلوقًا؛ فإن العدم غير مخلوق، فكونه مخلوقًا يدل علىٰ وجوده؛ يقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، فجعل الشر مخلوقًا، ويقول النبي ﷺ: (**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكلِمَاتِ الله التّامّاتِ مِن شَرّ مَا خَلَقَ؛ لَمْ يَضُرّهُ شيءٌ حَتّىٰ يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ**)[١].

وأيضًا فالشر شيءٌ، وكل شيءٍ موجودٌ، فهو مخلوق لله، قال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرَّعْد: ١٦].

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله: (وهو سبحانه خالقُ الخير والشرِّ)[٢]. وقال النووي رحمه الله: (مذهب أهل الحق أنَّ كل المحدثات فعل الله تعالىٰ وخلقه سواء خيرها وشرها)[٣]. وقال ابن حزم رحمه الله: (وذهب أهل السنة كلهم إلىٰ أن جميع أفعال العباد مخلوقة خلقها الله عز وجل في الفاعلين لها)[٤].

فالشر الموجود مخلوق لله، وأما الشر الذي ليس بمخلوق، فهو مثل عدم فعل العبد الذي أزاغ الله قلبه ما خُلق له وفطر عليه، وهذا ليس أمرًا وجوديًا، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (إن ما يُبتلىٰ به العبد من الذنوب الوجودية، وإن كانت خلقًا لله تعالىٰ فهي عقوبة له علىٰ ذنوب قبلها؛

(١) رواه مسلم (٢٧٠٨).
(٢) شفاء العليل ص١٧٩.
(٣) شرحه علىٰ مسلم (٦/ ٥٩).
(٤) الفصل (٢/ ٨٦) دار الكتب العلمية، وضع حواشيه: أحمد شمس الدين.

فالذنب يُكسب الذنب، ومن عقاب السيئةِ السيئةُ بعدها، فالذنوب كالأمراض التي يورث بعضها بعضًا. يبقي أن يقال: فالكلام في الذنب الأول الجالب لما بعده من الذنوب؟ يقال: هو عقوبة أيضًا علىٰ عدم فعل ما خلق له وفُطر عليه، فإن الله ﷻ خلقه لعبادته وحده لا شريك له، وفطره علىٰ محبته وتأليهه والإنابة إليه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]. فلمَّا لم يفعل ما خُلق له وفُطر عليه من محبة الله وعبوديته والإنابة إليه؛ عوقب علىٰ ذلك بأن زيَّن له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي، فإنه صادف قلبًا خاليًا قابلًا للخير والشر، ولو كان فيه الخير الذي يمنع ضده لم يتمكن منه الشر، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] . . والإخلاص خلوص القلب من تألُّه ما سوىٰ الله تعالىٰ وإرادته وحبته، فخلص لله فلم يتمكن منه الشيطان، وأمَّا إذا صادفه فارغًا من ذلك تمكن منه بحسب فراغه؛ فيكون جعله مذنبًا مسيئًا في هذا الحال عقوبة له علىٰ عدم الإخلاص، وهو محض العدل.

فإن قيل: فذلك العدم منْ خلَقه فيه؟ فالجواب: هذا سؤال فاسد؛ فإن العدم كاسمه لا يفتقر إلىٰ تعلُّق التكوين والإحداث به، فإن عدم الفعل ليس أمرًا وجوديًا حتىٰ يضاف إلىٰ الفاعل، بل هو شر محض، والشر ليس إلىٰ الرب ﷻ)[1].

وقد يقال: إن الترك فعل، وأن سبب عدم فعل العبد ما خلق له وفُطر عليه هو حيلولة الله تعالىٰ بينه وبين ذلك، وهذه الحيلولة مخلوقة، لكن ظاهر الآية لا يسعف علىٰ هذا فإنه تعالىٰ ذكر أنهم هم من زاغوا أولًا،

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٦٠٣)، ونقله في شرح الطحاوية (٢/ ٦٤٥-٦٤٦).

وعلىٰ هذا يكون الصحيح ما قرره العلامة ابن القيم، وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله.

ولما قرر ديكارت أن الخطأ هو «الحرمان» أرجعَ سبب الحرمان إلىٰ كون الإرادة أوسع من الذهن، وقد قرَّر -كما سبق- أن الإرادة لا نهائية، وقرر أن الذهن متناهي لأنه مخلوق، فالذهن إذًا يجهل أشياء كثيرة، فمنشأ الخطأ عنده هو: (أن الإرادة لما كانت أوسع من الذهن نطاقًا، فإني لا أستطيع أن أحبسها في حدوده، بل أبسطها أيضًا علىٰ الأشياء التي لا أحيط بها؛ إذا فالحرمان الذي يكون في الخطأ إنما ينتج من استعمالنا حرياتنا استعمالًا سيئًا)[١].

فقرر ديكارت أن هذا الحرمان سببه أفعالنا وتصرفاتنا، وأنه لا يقع علىٰ الله تعالىٰ، وبهذا جعل مسئولية الحرمان تعود علىٰ الإنسان وحده؛ فقال: (والمسئولية في ذلك لا تقع علىٰ طبيعتنا، ولا تقع بالتالي علىٰ الله، بل تقع علىٰ أفعالنا وتصرفاتنا .. فإنا إذا المسئول وحدي عن الحرمان الذي في الخطأ)[٢].

وقال عن النقصان الذي في الذهن: (هو سلبٌ بحت، وليس حرمانًا ولا نقصًا ذاتيًا ينسب إلىٰ الله وحده)[٣].

ويقول: (وإذن فما منشأ الخطأ عندي؟ إنه ينشأ من أن الإرادة أوسع من الفهم نطاقًا، فلا أبقيها حبيسة في حدوده، بل أبسطها أيضًا علىٰ الأشياء التي لا يحيط بها فهمي. ولما كانت الإرادة من شأنها ألا تبالي،

(١) التأملات ص١٧٣.
(٢) التأملات ص١٧٣.
(٣) التأملات ص١٧٢.

فمن أيسر الأمور أن تضلَّ، وتختار الزلل بدلا من الصواب، والشرَّ عوضًا عن الخير، مما يوقعني في الخطأ والإثم)[(١)].

وفي كلامه هذا إذا عرض علىٰ الوحي وعلىٰ العقل السليم أخطاء كثيرة:

الأول: جعله إرادته لا نهائية، وقد سبق الكلام حولها.

الثاني: أنه جعل الشر مجرد الحرمان، وهو متأثر هنا بنصرانيته، وفسَّر الحرمان بأن سببه الجهل، وأن الإرادة تفعل أشياء بلا فهم بكونها صواب أو خطأ لمحدودية الفهم أو الذهن.

الثالث: أنه سلب كون الخطأ مخلوقًا لله، وقد وافق بهذا المعتزلة عند المسلمين، وقد سبق الرد عليه.

الرابع: جعله عدم الفهم هو سبب الوقوع في الخطأ. فيقال له: لو كان كذلك لما كان علىٰ الإنسان ذنب؛ لأنه جعَله لا يستطيع فهم كون ما وقع فيه خطأ أو صواب، فكيف يلام علىٰ ما لا يطيقه؛ خاصة إذا جمع هذا مع قوله: (الإرادة شيء واحد لا ينقسم[(٢)] فقد لزم لطبيعتها أننا لا نستطيع أن تقتطع منها شيئًا دون أن نقضي عليها)[(٣)].

وللرد عليه في هذه المسائل أبيِّن -مستعينا بالله تعالىٰ- أمورًا:

الأول: أن العبد يمكن منه بل يجب عليه أن يمنع نفسه من الإرادة الجازمة علىٰ الخطأ، وألا يُقدِم علىٰ فعل شيء حتىٰ يتأكَّد من كونه صوابًا

(١) التأملات ص١٨٩.
(٢) يقول عثمان أمين في حاشية ص١٩٢: (يقصد حرية الاختيار). وهو ظاهر.
(٣) التأملات ص١٧٣، ونحوه ص١٩٢.

أو خطئًا، خيرًا أو خطيئة، فحرية الاختيار الكاملة لا يلزم منها الوقوع في الخطأ.

الثاني: أن العبد إذا عمل عملًا وهو جاهل بكونه خطئًا كهذا الجهل الذي يذكره ديكارت فإنه معذور، كما قال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإِسرَاء: ١٥].

الثالث: أن سبب الوقوع في الخطأ والشر ليس هو مجرَّد الحرمان، نعم هو حرمان من التوفيق لكن سببه كسْبُ العبد -لا الحرمان الذي يصوره ديكارت- وسببه خذلان الله تعالىٰ بعدله للعبد ووكْلِه إلىٰ نفسه، وعدم إعانته والتفضل عليه.

الرابع: أن الله خالق كل شيء من خير وشر، وقد سبق ذكر أدلته.

الخامس: أن إرادة العبد لا تكون إلا بعد مشيئة الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإِنسَان: ٣٠]. فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقد سبق أيضا بيانه بحمد الله.

السادس: أن النقصان الذي في الذهن ضرورة لكل مخلوق كما قرَّر ديكارت، لكن منه أيضًا نقصٌ سببه من تقصير العبد في الفهم. وقد يكون هذا التقصير مما يلام عليه، فمن نقصان الفهم والذهن ما يعذر به العبد ومنه ما لا يعذر به، كمن بلغه القرآن أو سمع بالرسول ﷺ ثم أعرض عن التعلم إعراضًا يوقعه في الكفر الظاهر.

السابع: أن كون الله تعالىٰ خالق لأفعال العبد ومُريد لها لا ينفي مسؤولية العبد عن أفعاله، كما أن علم الله السابق وكتابته المقادير لا ينفي

مسؤولية العبد عن ذلك، وقد سبق نقل وشرح قول كثير من أئمة السلف: (ناظروا القدرية بالعلم؛ فإن أقروا به خصموا، وإن أنكروا كفروا).

واما قول من يقول من أهل البدع: لو كان خالقًا لها لكان هو الفاعل لها والله منزه عن فعل الشر، فهذا سببه عدم التفريق بين الفعل والمفعول والخلق والمخلوق، وهذا أحد أهم أسباب الضلال في باب القدر، مع الأصل الثاني وهو: عدم التفريق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية.

أما أهل السنة فيفرقون فيقولون: الله خالق فعل العبد والعبد هو الفاعل، وليس الخلق -الذي هو فعل الله- هو المفعول -الذي هو فعل العبد- فالله خالق والعبد فاعل وكاسب، لذلك نُسب الفعل إلىٰ العبد وبيَّن تعالىٰ أن عقاب العاصي بسبب فعله فقال تعالىٰ: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤]، وقال سبحانه: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩]، فالخلق فعل الرب تعالىٰ وهو وصفه، والفعل من طاعة ومعصية قام بالعبد، والله تعالىٰ لا يقوم به الشر والعيب والنقص، فهذا فعل العبد.

قال الإمام ابن ابي العز: (فالحاصل أن فعل العبد فعلٌ له حقيقةً، ولكنه مخلوق لله تعالىٰ ومفعول لله تعالىٰ ليس هو نفس فعل الله، ففرقٌ بين الفعل والمفعول والخلق والمخلوق، والىٰ هذا المعنىٰ أشار الشيخ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد) أثبت للعباد فعلًا وكسبًا، وأضاف الخلق لله تعالىٰ، والكسب هو الفعل الذي يعود علىٰ فاعله منه نفع أو ضرر، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦])[2].

---

(١) أي: الإمام الطحاوي.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٥٠٢.

الثامن: زعْم ديكارت أنه لا يستطيع حبسَ الإرادة في حدود الذهن، وجعْله الإرادة شيئًا واحدًا، باطلٌ؛ فالعبد له فعلان: فعل بالإرادة، وفعل بدون إرادة، فالفعل الإرادي بإمكانه تركه، أو فعل بعضه. فالعبد مسئول عن حريته وإرادته فلا يجوز له أن يريد الإرادة الجازمة إلا ما هو خير قطعًا، أو يترجح عنده أنه كذلك ترجحًا له مبرراته. فقوله: (المسئولية في ذلك لا تقع علىٰ طبيعتنا) كلام باطل، بل المسئولية تقع علىٰ إرادتنا، وعلىٰ تصرفاتنا أيضًا؛ لأن تصرفاتنا ناتجة عن إراداتنا الجازمة، ولا يمكن أن يقع تصرفٌ بدون إرادة. لذلك يعاقَب العبد علىٰ الإرادة الجازمة ولو حال بينه وبين الفعل حائل، لذلك قال رسول الله ﷺ: إذا تَواجَهَ المُسلِمانِ بسَيفَيهِما، فقَتَلَ أحَدُهُما الآخَرَ، فالقاتِلُ والمَقتولُ في النَّارِ، فقيلَ: هذا القاتِلُ، فما بالُ المَقتولِ؟! قال: إنَّه أرادَ قَتلَ صاحِبِه[1]. فتوعد بالعقوبة لإرادته الجازمة قتل صاحبه، وفي الرواية الأخرىٰ: **(إنّه كانَ حَريصًا علىٰ قَتْلِ صَاحِبِه)**[2].



(١) متفق عليه، رواه البخاري (٧٠٨٣)، ومسلم (٢٨٨٨).

(٢) رواه البخاري (٦٨٧٥).



المبحث الثاني

هل الله يريد الشر؟

وهل الشر يرجع إلى الله عند ديكارت؟

قرَّر ديكارت -إرادة منه تنزيه الله تعالىٰ- أنَّ الله تعالىٰ لم يرِدِ الشر والإثم؛ فقال: (الله ليس مريدًا لحصول الخطيئة والإثم)[١]. وقال: (لا يُريد إثم الخطيئة علىٰ الإطلاق)[٢]. ويوافق بهذا رأي المعتزلة من فرق المسلمين.

ويقول: (إرادة التضليل لا تصدر أبدًا إلا عن خبث أو خوف أو ضعف، ومن ثمَّ لا يمكن نسبتها إلىٰ الله)[٣].

وقد سبقت مناقشة ديكارت في بعض هذا الكلام، ونحتاج هنا إلىٰ مناقشته في مسألتين:

الأولىٰ: هل الله تعالىٰ أراد وقوع الخطيئة والشر منا؟

الثانية: هل ينسب الشر إلىٰ الله؟

فالأولىٰ: يقال فيها: لو كانت الخطيئة والشر واقعة بغير إرادة الله فهذا يعني أنه يقع في ملك الله ما لا يريده، وهذا تنقُّصٌ لكمال

(١) مبادئ الفلسفة ص٦٦.

(٢) مبادئ الفلسفة ص٦٧.

(٣) مبادئ الفلسفة ص٧٠.

ملكه تعالىٰ، كما سبق، وهو وصفٌ له تعالىٰ عن ذلك بالضعف. خاصة أنا قررنا بالأدلة أن الشرَّ منه وجوديٌّ مخلوق. لذلك فديكارت وقع في شرٍّ ممَّا فرَّ منه، ولتنزيه الله تعالىٰ عن النقص والظلم وهو تعالىٰ منزه منهما، يبيِّن أن إرادة الله تعالىٰ للشر لا لذات الشر بل لما يترتب عليه من مصالح وحكم تفوق هذا الشر أضعافًا مضاعفة، فيكون وجود هذا الشر لحكمة ورحمة من حيث الجملة، ويكون شرًا بالنسبة لمن تسبب فيه. وإرادة الله تعالىٰ للشر هي إرادة كونية وليست إرادة شرعية؛ ومن أكبر أسباب الانحراف في مسائل القدر هو عدم التفريق بينهما، فإن الإرادة نوعان: الإرادة الكونية القدرية وتعني: مشيئة الله تعالىٰ الشاملة لجميع الحوادث؛ فهي تتعلق بكل ما يشاء الله تعالىٰ فعله وإحداثه، سواء أحبَّه أو لم يحبه من الكفر والمعاصي. والنوع الثاني: الإرادة الدينية الشرعية وتعني: إرادة الله تعالىٰ المتضمنة للمحبة والرضا، فهي تتعلق بكل ما يأمر الله تعالىٰ به عباده ممَّا يحبُّه ويرضاه(١).

فإرادته تعالىٰ للشر هي من الإرادة الكونية القدرية فهو تعالىٰ لا يحبه ولم يأمر به، وأيضا لم يُكره عبده عليه -تعالىٰ سبحانه عن ذلك-. والأدلة من القرآن علىٰ كون الله تعالىٰ أراد الشر المخلوق كثيرة؛ منها قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال تعالىٰ حكاية عن نوح: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا

(١) انظر: مجموع فتاوىٰ ابن تيمية (١١/٢٦٦).

خِزۡيٌۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [المَائدة: ٤١]. والأدلة علىٰ هذا الأصل كثيرة.

المسألة الثانية: وهي هل ينسب الشر إلىٰ الله؟ فالجواب أن يقال: لا شك أولًا وكما سبق أن الله خالق كل شيء، ومن ذلك الشر الموجود، لكنه ليس إلىٰ الله، بل هو من الله تعالىٰ خير؛ لأنه يراد للخير، وهو سبحانه لا يخلق شرًا محضًا، أو شرا تستوي مصالحه ومفاسدة أو تقترب من بعضها؛ لأنه أحكم الحاكمين، وأعلم الأعلمين؛ لذلك قال النبي ﷺ: **(وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ)**(١). يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فإنه لا يخلق شرًّا محضًا، بل كل ما يخلقه ففيه حكمة، هو باعتبارها خير، ولكن قد يكون فيه شرٌّ لبعض الناس، وهو شرٌّ جزئي إضافي، فأمَّا شرٌّ كليٌّ، أو شر مطلقٌ؛ فالرب منزه عنه، وهذا هو الشر الذي ليس إليه)(٢).

ولذلك لم تأت إضافة الشر إلىٰ الله تعالىٰ إلا علىٰ ثلاث وجوه(٣):

الأول: أَنْ يُذْكَر الشرُّ مع مخلوقاته لدخوله ضِمْنَ العموم الذي يفيد عمومَ القدرة والمشيئة والخَلْق، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرَّعۡد: ١٦]، [الزُّمَر: ٦٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [النُّور: ٤٥].

الثاني: أَنْ يُحْذَف فاعلُ الشرِّ، مثل قوله تعالىٰ عن مؤمني الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجِنّ: ١٠].

(١) رواه مسلم (٧٧١).
(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٤/ ٢٦٦).
(٣) انظر: فتاوىٰ ابن تيمية (١٤/ ٢٦٦)، شرح الطحاوية (٢/ ٥١٧-٥١٨).

الثالث: أَنْ يُسْنَدَ إلىٰ مَحَلِّه القائم به، كقول إبراهيم عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٧٨-٨٠]، فأضاف إبراهيمُ عليه السلام المرضَ إلىٰ نفسِه التي هي مَحَلُّ المرض ولم يُسْنِده إلىٰ الله تعالىٰ.

يقول الإمام ابن القيم: (أسماءه كلَّها حسنىٰ ليس فيها اسمٌ غير ذلك أصلًا، وقد تقدم أنَّ من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل؛ نحو الخالق والرازق والمحيي والمميت، وهذا يدل علىٰ أنَّ أفعاله كلَّها خيراتٌ محضةٌ لا شر فيها؛ لأنَّه لو فعل الشر لاشتُق له منه اسم ولم تكن أسماؤه كلُّها حسنىٰ، وهذا باطلٌ، فالشر ليس إليه، فكما لا يدخل في صفاته ولا يلحقُ ذاته فلا يدخل في أفعاله، فالشر ليس إليه، لا يضاف إليه فعلًا ولا وصفًا، وإنَّما يدخل في مفعولاته.

وفرقٌ بين الفعل والمفعول، فالشر قائمٌ بمفعوله المباين له، لا بفعله الذي هو فعله، فتأمل هذا فإنه خفي علىٰ كثير من المتكلمين وزلت فيه أقدامٌ وضلت فيه أفهامٌ، وهدىٰ اللَّه أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم)[١].



(١) بدائع الفوائد (١/ ١٧١).



المبحث الثالث

كيف نتلافى الخطأ والشرَّ عند ديكارت؟

يرىٰ ديكارت أن سبب تجنُّب الخطأ هو المعرفة الواضحة المتميِّزة به، يقول: (لن نخطئ إذا ما التزمنا ألا نحكم إلا علىٰ أشياء ندركها إدراكًا واضحًا متميِّزًا، ولكن الأمر المستيقن أننا لن نأخذ الخطأ بدلًا من الصواب قط، ما دمنا لا نحكم إلا علىٰ ما ندركه في وضوح وتميُّز. فمن حيث إن الله ليس مضلاًّ، فملكَة المعرفة التي وهبنا الله لا يمكن أن تخطئ، وكذلك ملكَة الإرادة، حين لا تتعدَّىٰ بها مجال الأشياء التي نعرفها. وهذه الحقيقة وإن لم يتيسر إقامة الدليل عليها، فإن نفوسنا ميَّالة بالفطرة إلىٰ التصديق علىٰ الأشياء التي ندركها إدراكًا جليًا إلىٰ الشعور باستحالة الشكِّ في حقيقتها)[(١)].

وفي كلام ديكارت هذا أخطاء جليَّة:

الخطأ الأول: قوله: (ولكن الأمر المستيقن أننا لن نأخذ الخطأ بدلًا من الصواب قط)، فمن المعلوم بالضرورة أن الإنسان قد يخطئ مع معرفته وإدراكه الصواب إدراكًا واضحًا متميزًا، بل لو أخطأ وهو غير عالم بأنه مخطئ فهو معذور في كثير من المسائل، وكثير من أعداء الرسل كانوا يعلمون أنهم علىٰ خطأ، وأن الرسل علىٰ حق ولكن تركوا اتباع الحق إما

(١) مبادئ الفلسفة ص٧٨.

تقليدًا لساداتهم أو بسبب الحسد أو الكبر أو غير ذلك، لذلك قال الله تعالىٰ عن أهل الكتاب: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٤٦]. قال ابن جرير الطبري: أي: (أحبار اليهود وعلماء النصارىٰ). وقوله تعالىٰ: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ قال ابن كثير في تفسيرها: (والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا). وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال القرطبي: (ظاهر في صحة الكفر عنادًا).

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النِّسَاء: ١٧].

قال ابن كثير: (قال مجاهد وغير واحد: كل من عصىٰ الله خطأ أو عمدًا فهو جاهلٌ حتىٰ ينزع عن الذنب. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصي به فهو جهالة، عمدًا كان أو غيره. وعن ابن عباس: من جهالته عمل السوء)[(١)].

الخطأ الثاني: قوله: (فمن حيث إن الله ليس مضلاً) وقد سبق الرد عليه.

الخطأ الثالث: قوله: (وهذه الحقيقة وإن لم يتيسَّر إقامة الدليل عليها، فإن نفوسنا ميَّالة بالفطرة إلىٰ التصديق علىٰ الأشياء التي ندركها إدراكًا جليًا إلىٰ الشعور باستحالة الشك في حقيقتها) فهو اعتراف منه أنه لا يمكنه إقامة الدليل عليها، وأن المعوَّل عليه هي الفطرة، وهذا يمكن من جهة التصديق القلبي، وأنه يستحيل أن يكذِّب الإنسان بقلبه أو يشك في ما علمه علمًا

(١) تفسير ابن كثير، وانظر تفسير الطبري، والبغوي وغيرهما.

متيقَّنا، إلا أن خطأ ديكارت الكبير هنا هو أنه قصر الخطأ علىٰ ما قال، والحق أن الخطأ لا يكون فقط في التكذيب القلبي، أو الشك، فقد يصدِّق بقلبه ويجحد بلسانه، وقد يصدِّق بقلبه ولا يعمل بموجب ذلك العلم. وديكارت نفىٰ كما سبق أن يؤخذ الخطأ بدلًا من الصواب قط.





المبحث الرابع

رد الاعتراض على وجود النقص والشر في المخلوق

طرح ديكارت سؤالًا، وهو: هل يقدر الله أن يهبْني معرفة بحيث لا أقع في الخطأ؟ وأجاب لدفع هذا الاعتراض -بعد اعترافه بقدرة الله علىٰ ذلك اعترافًا لا ينفعه لأنه ليس مسلمًا- بعدة أجوبة، وهي جيَّدة في مجملها، وفيها رد علىٰ الملاحدة:

الجواب الأول: أنه يجِبُ كفُّ العقل عن التفكير في أفعال الله؛ لأنها فوق إدراك المخلوق، يقول ديكارت: (إنني شيء ضئيل جدًّا بالقياس إلىٰ اللامتناهي؛ فينبغي ألا أُدهش لعجزي عن أن أفهم لمَّا يفعل الله ما يفعل؛ فإن غايته تعالىٰ لا يستطيع أن يكشف عنها ذهنٌ محدود كذهني)[(١)].

وقال: (لا ينبغي أن أعجب لعجْزي عن أن أفهم سرّ صنع الله لما صنع، كما أنه لا ينبغي أن أشكَّ في وجوده؛ لأني ربما أجد أشياء كثيرة أخرىٰ لا أفهم كيف خلقها الله؛ وذلك أني لما كنت أعلم أنَّ طبيعتي ضعيفة، محدودة للغاية، وأن طبيعة الله[(٢)] واسعة لا متناهية، ولا يمكن الإحاطة بها؛ فقد تيسر لي الآن أن أتبين أنَّ في مقدوره أشياء كثيرة

---

(١) التأملات ص١٧١.

(٢) هذا التعبير غير مشروع بحسب ما تدل عليه الأدلة الشرعية عند المسلمين علىٰ مذهب أهل السنة والجماعة؛ لأن صفات الله تعالىٰ توقيفية، ويقال: صفات الله. لكن لن أتتبع ديكارت في مثل هذه الملاحظات، فليس هو بمسلم.

لا حصر لها، وتتجاوز نطاق عقلي. وهذا الاعتبار وحده كاف لإقناعي بأن ما اصطُلح علىٰ تسميته بالعلل الغائيَّة لا محل للبحث عنه في الأشياء الفيزيقية أو الطبيعية؛ إذ يلوح لي أن الخوض في غايات الله ومحاولة الكشف عن أسرارها جراءة عليه سبحانه)(١).

ويقول: (لأنه سبحانه ذو سلطان علىٰ الكون مطلق حر، فلا يُسأل عما يفعل)(٢).

وهذا جواب صحيح في مجمله، فالله تعالىٰ يقول: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قال ابن عطية في تفسير الآية: (وهذا وصف يحتمل معنيين: إما أن يريد أنه بحق ملكه وسلطانه لا يعارَض ولا يسأل عن شيء يفعله؛ إذ له أن يفعل في ملكه ما يشاء. وإما أن يريد أنه محكم الأفعال واضع كل شيء موضعه، فليس في أفعاله موضع سؤال ولا اعتراض، وهؤلاء من البشر يسألون لهاتين العلتين لأنهم ليسوا مالكين ولأنهم في أفعالهم خلل كثير)(٣).

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

والبحث عن العلل الغائية في أسرار القدر وفي بعض أفعال الله تعالىٰ ممنوع منه، ويسلَّم هذا لديكارت، في هذه الأبواب ونحوها، وليس مطلقًا، فهناك جوانب أبان الشارع أسرارها فلا مانع من البحث في ذلك لزيادة اليقين. وأما أسرار القدر فكما يقول الإمام الطحاوي: (وأصل القدر

(١) التأملات ص١٨٢-١٨٣. وانظر: مبادئ الفلسفة ص٦٩.
(٢) مبادئ الفلسفة ص٧٦.
(٣) المحرر الوجيز عند تفسير الآية.

سرُّ الله تعالىٰ في خلقه، لم يُطْلع علىٰ ذلك ملكٌ مقرَّب، ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلَّم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة، فإن الله تعالىٰ طوىٰ علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالىٰ في كتابه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ فمن سأل: لم فعل؟ فقد ردَّ حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب؛ كان من الكافرين).

ويقول ابن ابي العز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (اعلم أن مبنىٰ العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله علىٰ التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع؛ ولهذا لم يحْكِ الله سبحانه عن أمَّة نبي صدَّقت بنبيها وآمنت بما جاء به، أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلَّغها عن ربها، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها، بل انقادت وسلَّمت وأذعنت، وما عَرفت من الحكمة عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وتسليمها علىٰ معرفته، ولا جعلت ذلك من شأنها، وكان رسولها أعظم عندها من أن تسأله عن ذلك، كما في الإنجيل: يا بني إسرائيل لا تقولوا: لم أمر ربنا؟ ولكن قولوا: بم أمر ربنا، ولهذا كان سلف هذه الأمة، التي هي أكمل الأمم عقولًا ومعارف وعلومًا لا تسأل نبيها: لم أمر الله بكذا؟ ولم نهىٰ عن كذا؟ ولم قدَّر كذا؟ ولم فعل كذا؟ لعلمهم أن ذلك مضادٌّ للإيمان والاستسلام، وأنَّ قدم الإسلام لا تثبت إلا علىٰ درجة التسليم. قال القرطبي ناقلًا عن ابن عبد البر: فمن سأل مستفهِمًا راغبًا في العلم ونفي الجهل عن نفسه، باحثًا عن معنىٰ يجب الوقوف في الديانة عليه. فلا بأس به، فشفاء العيِّ السؤال. ومن سأل متعنتًا غير متفقه ولا متعلم، فهو الذي لا يحلُّ قليل سؤاله ولا كثيره)[١].

(١) شرح الطحاوية (١/ ٣٤١-٣٤٢).

الجواب الثاني: أن الواجب هو شكر الله تعالىٰ؛ لأنه عدَل مع عبده، ولم يظلمه، بل تفضَّل عليه، يقول ديكارت: (ولا يصح لي أن أشكو من أنَّ الله لم يضعني في مرتبةِ أكملِ الأشياء، بل خليقٌ بي أن أحمده علىٰ الأقل لأنه جعل في مقدوري وسيلة أخرىٰ لتجنُّب الخطأ، وهي القدرة علىٰ التوقف عن الحكم علىٰ الأشياء التي لا أعرفها في وضوح)(١).

وقال: (فلا ريب أنه ليس لدي من داع للشكوىٰ من أن الله لم يهبني ذكاء أوسع أو نورًا فطريًا أكمل مما وهبني، ما دام من طبيعة الذهن المتناهي ألا يكون محيطًا بأشياء كثيرة، ومن طبيعة الذهن المخلوق أن يكون متناهيًا. ولكن الخليق بي من كل وجه أن أشكره تعالىٰ علىٰ نعمائه إذ رزَقني كل ما اتصفت به من كمالات يسيرة دون أن يكون لي عليه فضل. وينبغي أن أباعد بين نفسي وبين أن أتوهَّم أنه ظلمني، فانتزع مني أو منع عني الكمالات الأخرىٰ التي لم ينعم بها علي)(٢).

وهذا أيضًا جواب صحيح في جملته؛ فالرضىٰ بالقضاء مطلوب شرعًا وعقلًا، مع شكر الله علىٰ النعم، ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (لا يكون بمنعِه سبحانه لهم من ذلك ظالمًا، وإنما يكون المانع ظالمًا إذا منع غيره حقًّا لذلك الغير عليه، وهذا هو الذي حرَّمه الرب علىٰ نفسه، وأما إذا منع غيره ما ليس حقًّا له، بل محض فضله ومنته عليه؛ لم يكون ظالمًا بمنعه. [فإن قيل]: لم تفضل علىٰ هذا ولم يتفضل علىٰ هذا؟ وقد تولىٰ سبحانه الجواب عنه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ

---

(١) التأملات ص١٧٤.

(٢) التأملات ص١٩٢.

ٱللَّهِۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩]، وليس في الحكمة إطْلاع كل فردٍ من أفراد الناس علىٰ كمال حكمته في عطائه ومنعه، بل إذا كشف الله عن بصيرة العبد حتىٰ أبصر طرفًا يسيرًا من حكمته في خلقه وأمره وثوابه وعقابه، وتأمل أحوال محلِّ ذلك واستدل بما علمه علىٰ ما لم يعلمه، وتيقَّن أن مصدر ما علم وما لم يعلم لحكمة بالغة لا توزن بعقول المخلوقين؛ فقد وُفق للصواب)[١].

وقد جاء هذا المعنىٰ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول اللَّه صلَّىٰ الله عليه وسلَّم قال: **(إنَّما مَثَلُكُمْ واليَهُودُ والنَّصَارَىٰ كَرَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عُمَّالًا، فَقالَ: مَن يَعْمَلُ لي إلىٰ نِصْفِ النَّهَارِ علَىٰ قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ علَىٰ قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، ثُمَّ عَمِلَتِ النَّصَارَىٰ علَىٰ قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، ثُمَّ أنْتُمُ الَّذِينَ تَعْمَلُونَ مِن صَلَاةِ العَصْرِ إلىٰ مَغَارِبِ الشَّمْسِ علَىٰ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، فَغَضِبَتِ اليَهُودُ والنَّصَارَىٰ، وقالوا: نَحْنُ أكْثَرُ عَمَلًا وأَقَلُّ عَطَاءً، قالَ: هلْ ظَلَمْتُكُمْ مِن حَقِّكُمْ شيئًا؟ قالوا: لَا، فَقالَ: فَذلكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَن أشَاءُ)**[٢].

قال ابن حجر: (فيه حجة لأهل السنة علىٰ أن الثواب من الله علىٰ سبيل الإحسان منه جل جلاله)[٣].

الجواب الثالث: أن وجود الشر أكمل من عدم وجوده، يقول ديكارت: (لو كنت وحدي في العالم كنت أكون أكمل مما أنا لو كان الله خلقني معصومًا من الخطأ، لكن العالم إذا كانت بعض أجزائه غير خالية من النقص، وكانت الأجزاء الأخرىٰ خالية منه يكون أعظم كمالًا مما لو كانت جميع أجزائه متشابهة)[٤].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٢/٦٠٦-٦٠٨) بتصرف.
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٢٢٦٨، ٢٢٦٩).
(٣) فتح الباري عند شرح هذا الحديث.
(٤) التأملات ص١٧٤.

فلا يوجد شرٌّ محض، يقول: (ينبغي ألا ننظر في كل مخلوق علىٰ حِدة، بل يجب النظر إلىٰ مخلوقاته في جملتها بقدر الإمكان؛ فإن شيئًا قد يبدو ناقصًا جدًّا إذا أخذ علىٰ حدة، لكن قد يكون كاملًا جدًّا باعتباره جزءًا من هذا الكون كله)(١). ويجعل ديكارت هذا مما يحقق لنا كمال أفعال الله(٢).

فيرىٰ أن وجود الخطأ أكمل، ويقول: (إرادته تعالىٰ قد تعلقت علىٰ الدوام بأفضل الأمور)(٣). فهو يدفع اعتراض من يعترض علىٰ وجود الشر من الملاحدة.

ويوافَق ديكارت علىٰ اعتقاد أن وجود الشر أكمل من عدمه في هذه الدنيا من حيث الجملة؛ لأن الشر نسبي إضافي، وهو من الله تعالىٰ خير؛ لأنه مخلوق لما يترتب عليه من مصالح عظيمة، تفوق وجود ذلك الشر، فهو شر بالنسبة إلىٰ بعض الخلق لكنه من حيث العموم خير راجح عظيم النفع، ولهذا يخلقه الرب ﷻ. وقد سبق الكلام حول هذه المسألة.

ويقول الإمام ابن أبي العز رحمه الله: (فإن قيل: إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره، ونحن مأمورون أن نرضىٰ بقضاء الله، فكيف نُنكِره ونكرهه؟ فالجواب: أن يقال أولًا: نحن غير مأمورين بالرضا بكل ما يقضيه الله ويقدره، ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة، بل من المقضي ما يُرضىٰ به، ومنه ما يُسخَط ويُمقت، كما لا يرضىٰ به القاضي لأقضيته سبحانه، بل من القضاء ما يسخط، كما أن من الأعيان المقضية ما يغضب عليه ويمقت ويلعن ويذم.

---

(١) التأملات ص١٧١-١٧٢.
(٢) التأملات ص١٨٤.
(٣) التأملات ص١٨٢.

ويقال ثانيا: هنا أمران: قضاء الله، وهو فعل قائم بذات الله تعالىٰ. ومقضي: وهو المفعول المنفصل عنه. فالقضاء كله خير وعدل وحكمة، نرضىٰ به كله. والمقضي قسمان: منه ما يرضىٰ به، ومنه ما لا يرضىٰ به.

ويقال ثالثًا: القضاء له وجهان: أحدهما: تعلقه بالرب تعالىٰ ونسبته إليه، فمن هذا الوجه يرضىٰ به. والوجه الثاني: تعلقه بالعبد ونسبته إليه، فمن هذا الوجه ينقسم إلىٰ ما يرضىٰ به وإلىٰ ما لا يرضىٰ به. مثال ذلك: قتل النفس، له اعتباران: فمن حيث قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه وجعله أجلا للمقتول ونهاية لعمره نرضىٰ به، ومن حيث صدر من القاتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصىٰ الله بفعله نسخطه ولا نرضىٰ به)[1].

الجواب الرابع: أنه لا يوجد دليل أنه يجب علىٰ الله تعالىٰ أن يجعلني كاملًا، يقول ديكارت: (لا دليل في الحقيقة علىٰ أن الله كان عليه أن يهبني قوة علىٰ المعرفة أعظم وأوسع مما وهبني فعلا. ومهما يخطر ببالي عن براعة فنه وإبداع صنعه، فلا يصح أن يذهب بي الظن إلىٰ أنه كان يجِب عليه أن يضفي علىٰ كل عمل من أعمالي جميع الكمالات التي في قدرته أن يضيفها علىٰ بعض أعمالي)[2].

وهذا أيضا حق؛ وقد سبق نقل كلام الإمام ابن القيم حوله. فليس لأحد علىٰ الله حق، ورُبَّ نعمة من نعم الله تفوق كل أعمال العبد الصالحة لو وزنت معها في الميزان، والله تعالىٰ هو المنَّان الذي يعطي العبد من غير استحقاق، فالواجب علىٰ العبد شكره علىٰ ما أعطاه من النعم، واستكثار ما يكون منه تعالىٰ مع استقلال ما يكون من العبد، وليس للعبد الاعتراض

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٣٦).
(٢) التأملات ص١٨٦.

علىٰ كون الله لم يعطيه بعض النعم؛ لأن هذا فضله تعالىٰ يعطيه من يشاء، وقد عدل مع عبده، وأعطاه من النعم ما يستحق تعالىٰ الشكر عليه.

والله أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.





خاتمة الباب، والتوصيات

الحمد لله وحده والصلاة والسلام علىٰ من لا نبي بعده، وبعد؛

فهذه أهم نتائج هذا الباب:

١- عقيدة القضاء والقدر أحد أركان الإيمان الستة التي لا يكون مؤمنًا من لم يؤمن بها.

٢- عقيدة القضاء والقدر عقيدة غيبية؛ فالواجب الرجوع فيها للوحي الصحيح.

٣- هذه العقيدة ضرورية لكل مخلوق، لأن حولها أسئلة ملحة إذا لم يجد الإجابة الصحيحة حولها ارتبكت حياته واضطربت نفسيته.

٤- كانت هذه العقيدة أعظم ما أشغل العقل البشري والفلسفي منذ قديم الزمان.

٥- سبب الضلال فيها هو الخوض فيها بالعقل المجرد فيما يحار فيه، أو الاعتماد علىٰ الوحي المكذوب، والعقائد المحرفة.

٦- الفلسفة الغربية والغرب عمومًا بحاجة إلىٰ أن يبين لهم العقيدة الإسلامية الصحيحة (عقيدة أهل السنة والجماعة) في هذه القضايا.

٧- عقيدة أهل السنة والجماعة فيها قائمة علىٰ التسليم، والتلقي من القرآن والسنة، من غير اعتراض، واتباع منهج السلف الصالح، والكف عما لم يرد في الكتاب والسنة.

٨- أعظم أسباب الضلال في باب القضاء والقدر، هو عدم التفريق بين الإرادة الشرعية والكونية، وعدم التفريق بين الخلق والمخلوق، والضلال في مسألة صفات الله تعالىٰ.

٩- كل من يريد تنزيه الله في هذا الباب بما يخالف الكتاب والسنة، فما يفر من شيء إلا وقع في شر منه.

١٠- ديكارت له جوانب إيجابية في مسائل القدر، في الإيمان به من حيث الجملة، والرد علىٰ الملاحدة.

١١- يعتبر ديكارت أبا للفلسفة الحديثة مما يؤكد علىٰ أهل السنة دراسة مذهبه، لكثرة المتأثرين به في الشرق والغرب.

١٢- سبب ضلال ديكارت في كثير من مسائل عقيدة القضاء والقدر، هو الوحي المحرف عند النصارىٰ، وعدم قبول دعوة الإسلام التي وصلت إليهم في فرنسا بلا شك، والخوض بالعقل المجرد.

١٣- يجب علىٰ المسلمين بيان الحق وإيصاله إلىٰ الخلق، بشتىٰ الطرق ومضاعفة الجهود في ذلك.

التوصيات:

١- يوصي المؤلف بدراسة مذاهب كبار الفلاسفة الذين لهم تأثير كبير في بيئاتهم؛ لأن من بعدهم إنما تأثروا بهم.

٢- ويوصي باتباع منهج القرآن فيها بالجدال فيما يجوز الجدال فيه بالتي هي أحسن، ومن قبل متخصصين متمكنين في عقيدة أهل السنة والجماعة، لألا يُضِلوا أو يُضَلوا.

٣- ويوصي بالحرص علىٰ ترجمة البحوث الجادة وإيصالها إليهم.

والله أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المراجع والمصادر

١- «أدلة الفلاسفة علىٰ وجود الله -دراسة نقدية-»، للدكتور عبدالكريم نوفل عبيدات، مجلة جامعة دمشق (المجلد التاسع، العدد الأول- ٢٠٠٣).

٢- «جنايات أرسطو في حق العقل والعلم -مظاهرها، آثارها، أسبابها-» للأستاذ الدكتور خالد كبير علال. دار المحتسب - الجزائر الطبعة الأولىٰ - ١٤٣٢/ ٢٠١١.

٣- انفعالات النفس، رينيه ديكارت، ترجمة وتعليق: جورج زيناتي. دار المنتخب العربي.

٤- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز - مكة المكرمة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦-١٩٩٦. تحقيق: هشام عطا - عادل العدوي- أشرف أحمد.

٥- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدهم الكلامية، ابن تيمية، مطبعة الحكومة - مكة ١٣٩٢هـ، الطبعة الأولىٰ، تحقيق: محمد بن عبدالرحمن بن قاسم.

٦- تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ٢٠٠٩.

٧- تاريخ الفلسفة الغربية لبرتراندرسل الكتاب الثالث: الفلسفة الحديثة، ترجمة: محمد فتحي الشنطي، الدار العامة المصرية للكتاب، ١٩٧٧.

٨- التأملات في الفلسفة الأولىٰ لديكارت، د.عثمان أمين. مقال في موقع حكمة.

٩- التأملات في الفلسفة الأولىٰ، ترجمه إلىٰ العربية وقدم له وعلق عليه: عثمان أمين، تصدير: مصطفىٰ لبيب، المركز القومي للترجمة، ١٢٩٧.

١٠- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرحه ونشرة: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية.

١١- التعريفات، لأبي الحسن علي بن محمد الجرجاني، وضع حواشيه وفهارسه: محمد باسل عيون، دار الكتب العلمية.

١٢- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، المحقق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ - ١٤١٩ هـ.

١٣- التنبيهات اللطيفة علىٰ ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة ضبط نصها وخرج أحاديثها محمد سليمان آل بسام.

١٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير أبو جعفر الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله التركي، دار هجر للطباعة والنشر، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢ هـ-٢٠٠١م.

١٥- الجامع الصحيح المختصر، اسم المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، دار النشر: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت - ١٤٠٧-١٩٨٧، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. مصطفىٰ ديب البغا.

١٦- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، زين الدين ابن رجب الحنبلي، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبدالله السيد، دار الكتب العلمية.

١٧- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لتقي الدين أبو العباس ابن تيمية الحراني، تحقيق: علي بن حسن وآخرين، دار العاصمة، السعودية، الطبعةالثانية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١٨- خواطر بليز باسكال، ترجمه إلىٰ العربية أدوار البستاني، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، ١٩٧٢.

١٩- دراسات في الفلسفة الحديثة، محمود حمد زقزوق، دار الفكر العربي، القاهرة، الثالثة ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٢٠- ديكارت والعقلانية، جنفياف روديس لويس، ترجمة عبده الحلو، منشورات عويدات، بيروت- باريس، الرابعة ١٩٨٨م.

٢١- ديكارت، تأليف: الدكتور نجيب بلدي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.

٢٢- سفر التكوين، ضمن الكتاب المقدس.

٢٣- سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

٢٤- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، لهبة الله بن الحسن اللالكائي أبو القاسم، المحقق: أحمد بن سعد بن حمدان، الطبعة الثانية ١٤١١هـ.

٢٥- شرح العقيدة الطحاوية، لابن ابي العز الحنفي، حققه وخرج أحاديثه: د. عبدالله التركي، شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية عشرة ١٤١٨-١٩٩٨م.

٢٦- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لشمس الدين بن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ.

٢٧- الشك المنهجي وتطبيقاته عند علماء الحديث، للدكتور خالد بن منصور الدريس

٢٨- الشيخ مصطفىٰ صبري وموقفه من الفكر الوافد، د. مفرح بن سليمان القوسي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط الأولىٰ، ١٤١٨هـ.

٢٩- صحيح مسلم بشرح النووي، اسم المؤلف: أبو زكريا يحيىٰ بن شرف بن مري النووي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٩٢، الطبعة: الطبعة الثانية.

٣٠- طريق الهجرتين وباب السعادتين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، الناشر: دار السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٤هـ.

٣١- العالم أو كتاب النور، ترجمة أميل خولي، دار المنتخب العربي، الطبعة الأولىٰ ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٣٢- العقيدة الواسطية تحقيق أشرف عبدالمقصود، أضواء السلف، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٠.

٣٣- علاقة العقل بالدين عند ديكارت، إعداد: قانة مسلمة، رسالة ماستر في جامعة قاصدي مرباح ورقلة. موجودة علىٰ الرابط:
https://bu.univ-ouargla.dz/master/pdf/Gana_Moslima.pdf?idmemoire=1531.

٣٤- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر، رقم كتبه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي. عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز. الطبعة السلفية.

٣٥- الفصل في الملل والأهواء والنحل، المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، دار الكتب العلمية، وضع حواشيه: أحمد شمس الدين.

٣٦- الفلسفة الحديثة عرض ونقد، أحمد السيد رمضان، مكتبة الإيمان، المنصورة، أمام جامعة الأزهر.

٣٧- فلسفة ديكارت ومنهجه دراسة تحليلية ونقدية، د.مهدي فضل الله، دار الطليعة، بيروت، الطبعة (٣) ١٩٩٦.

٣٨- القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه، المؤلف: عبد الرحمن بن صالح المحمود. الناشر: دار الوطن، الطبعة الثانية ١٤١٨-١٩٩٧.

٣٩- الله أساس المعرفة والأخلاق عند ديكارت. نظمي لوقا، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة ٢٠٠٣م.

٤٠- مبادئ الفلسفة، رينيه ديكارت، ترجمة: عثمان أمين، دار الثقافة للنشر والتوزيع.

٤١- مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٤٢- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد بن عطية الأندلسي، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولىٰ - ١٤٢٢ هـ.

٤٣- مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة، لابن قيم الجوزية، اختصار: محمد بن الموصلي، تحقيق: د.عبدالرحمن بن الحسن العلوي، أضواء السلف، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٥-٢٠٠٤م.

٤٤- مختصر العلو للعلي العظيم للذهبي، اختصار محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

٤٥- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، اسم المؤلف: لابن قيم الجوزية، دار النشر: دار الكتاب العربي - بيروت - ١٣٩٣-١٩٧٣، الطبعة الثانية، تحقيق: محمد حامد الفقي.

٤٦- المدخل إلىٰ دراسة التاريخ والأدب العربيين. د. نجيب محمد البهبيتي، دار الثقافة، المغرب الطبعة الثانية ١٤٠٤-١٩٨٥.

٤٧- مدخل نقدي لدراسة الفلسفة، محمد عبدالله الشرقاوي، الطبعة الثانية، دار الجيل، بيروت.

٤٨- المذاهب الفلسفية العظمىٰ في العصور الحديثة، د.محمد غلاب، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٨م، ص٦٨-٦٩.

٤٩- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله ﷺ، لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٥٠- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة ١٤١٧ هـ-١٩٩٧ م.

٥١- معجم مقاييس اللغة، بتحقيق وضبط عبد السَّلام محمد هَارُون، طبعة دار الفكر.

٥٢- مقال عن المنهج، رينيه ديكارت، ترجمة: محمود محمد الخضيري، الطبعة الثانية، راجعها وقدم لها: محمد مصطفىٰ حلمي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٩٦٨.

٥٣- مقال للدكتور عبدالله العليان في جريدة عمان بعنوان «الغزالي وديكارت في فلسفة الذات» http://thaqafat.com/2016/03/30348.

٥٤- مقدمة ابن خلدون، طبعة دار الفكر.

٥٥- المنطق القديم عرض ونقد، محمود محمد مزروعة، مكتبة كنوز المعرفة، الطبعة (٢) ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦.

٥٦- المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزالي، دار المنهاج، جدة، الأولىٰ ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.

٥٧- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لأبي زكريا يحيىٰ بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢.

٥٨- المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت، محمود حمدي زقزوق، دار المعارف.

٥٩- الموسوعة التونسية المفتوحة علىٰ الشبكة.

٦٠- موسوعة الفلسفة، د. عبدالرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة (١) ١٩٨٤.

٦١- الموسوعة الفلسفية المختصرة، فؤاد كامل وآخرين، دار القلم، بيروت.

٦٢- موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، الشيخ مصطفىٰ صبري، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.

٦٣- نحو تأسيس عصر ديني جديد، د. محمد عثمان الخشت، نيوبوك للنشر والتوزيع، ٢٠١٧.

٦٤- نقد فكر الفيلسوف ابن رشد الحفيد، علىٰ ضوء الشرع والعقل والعلم- دراسة نقدية لكشف حقيقة فكر ابن رشد، المؤلف: الدكتور خالد كبير علال.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

